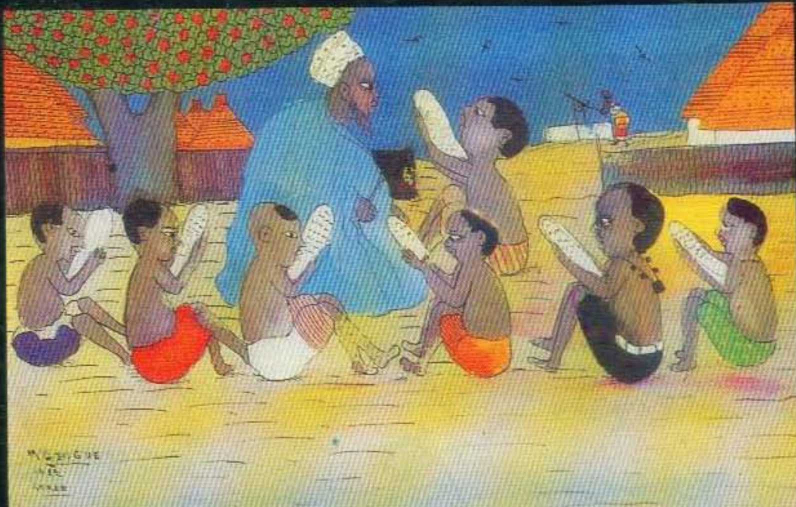
آكيه.. سنوات الطفولة

وول سوينكا



الرواية التي حاز المؤلف بموجبها على جائزة نوبل ١٩٨٦

ترجمة سمير عبد ربه

مكتبة مدبولي

B.HAMDAN

« وول سوينكا »

« آكية .. سنوات الطفولة »

الرواية التى حاز بموجبها على جائزة نوبل ١٩٨٦

ترجمة وتقديم / سمير عبد ربه

مقدمة

بقلم المترجم

- يضم الأدب الأفريقى كثيراً من الأعمال الجيدة التى ينبغى التوقف عندها إذ لا تقل أهمية وإبداعاً عن الأدب الغربى الذى تزخر به مكتباتنا العربية وبإستثناء بعض المحاولات الجادة والقليلة التى قام بها كتابنا وأدباؤنا فى التعريف بهذا الأدب وهؤلاء المبدعين فإننا نعانى نقصاً فى هذا الصدد لا يتناسب مع ما يحتويه الأدب الأفريقى من أعمال عظيمة فى شتى مجالات الإبداع (القصة - الرواية - الشعر - المسرح) إذ أن اختلاف الثقافات قد ساهم بشكل مباشر فى إبداعات تلك القارة السوداء إلى جانب الإستعمار الأوربى الذى لا يخلو أى عمل أدبى من الإشارة إليه كما أن التراث والبيئة والطقوس الخاصةالتى يتميز بها ذلك العالم الأفريقى الأسود قد إنعكست على الفنون والآداب وأكسبتها مذاقاً خاصاً ونستطيع أن نرى ذلك بوضوح فى معظم الأدب الأفريقى إن لم يكن جميعه .

يعد سوينكا أهم وأبرز كاتب أفريقى .. وُلد عام ١٩٣٤ فى مدينة "أبيوكوتا" بجنوب نيجيريا قبل إندلاع الحرب العالمية الثانية التى أشاعت فى نفسه وهو صبى كثيراً من الأفكار والمشاعر إنعكست فى أعماله فيما بعد وبخاصة فى هذه الرواية الهامة (آكية ..سنوات الطفولة) وهى عبارة عن سيرة ذاتية مبهجة كتبها سوينكا بأسلوب أخاذ ورشيق وتحكى قصة طفولته

وصباه قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية فى مدينة " آكيه " بغرب نيچيريا بحيث يصعب علي من كانوا في عمره أن يكبروا دون أن يتذكروا كل شئ .. أولئك الذين شاء لهم أن ينشأوا في تلك البيئة وذلك المكان متعدد الثقافات .

إلتحق " وول سوينكا " بمدرسة " أبادان " الحكومية وأتم تعليمه بجامعة " أبادان " ومع بداية التحاقه بالجامعة أذيعت له أول قصة فى الإذاعة عام ١٩٥١ فكان ذلك حدثاًمثيراً بالنسبة له .

يعمل الآن أستاذا للأدب المقارن بجامعة " أيف " بنيچيريا وقد حصل على الدكتوراه الفخرية فى الأدب من جامعة " ييل " وكذلك العديد من الجوائز الأدبية كان آخرها جائزة نوبل العالمية عام ١٩٨٦ .

- " مبدع وفنان شامل " !!

المتتبع لأعمال سوينكا المتنوعة لابد أن يقف كثيراً أمام سؤال محير بعض الشئ : هل هو كاتب مسرحى أم روائى أم أنه شاعر ؟

والإجابة على هذا السؤال هى كل ذلك معاً بالإضافة إلى أنه ناقد وممثل ومخرج إذاعى ومسرحى وكوميديان ومدرس جامعى ومصمم أقنعة فكان لهذه التركيبة الفنية الثرية والمتنوعة أثرها فى أسلوبه الأدبى .

فى فترة السجن كتب كثيراً من القصائد والمخطوطات التى تناول فيها

تجربته والتى تجسدت فى عمله الشهير (مات هذا الرجل) الذى كتب فيه عبارته الشهيرة : (يموت الرجل في كل إنسان يلتزم الصمت فى وجه الطغيان)

بدأ " وول سوينكا" إنتاجه عام ١٩٦٠ برواية (رقصة الغابات) تلاها في عام ١٩٦٥ برواية (المفسرون) التى تعرض فيها لمشاكل المثقفين وقضاياهم فى عالم أفريقى متميز بإحدى المدن النيچيرية من خلال علاقة قوية تربط بين أربعة من الأصدقاء : (مهندس - صحفى - فنان تشكيلى - مدرس جامعة) كتب أيضاً فى عام ١٩٧٣ (موسم الفوضى) وتبعها بكتابه (داخل القبو) ، والأسد والجوهرة) ، (العرق القوى) ، (ثورة كونجى) ، (الموت) ، (أناس المستنقع) ، (العمالقة) ، (سنوات الحزن) ، (محاكة الأخ چيرو) ، (أتباع باكوس) وأوبرا (ونيوس) ، (مكوك فى السرداب)

أصدر سوينكا ديوانين من الشعر أولهما عام ١٩٦٧ والآخر عام ١٩٦٩ وتعد قصيدته « محادثة تليفونية » من أشهر قصائده وفى هذا الصدد أود أن أذكر أن كل أعماله مكتوبة بالإنجليزية فيما عدا معظم أعماله الشعرية التى كتبها بلغته الأصلية وهى لغة اليوروبا .

-المسرح عند سوينكا .

نتوقف قليلا عندالسؤال التالى : ماذا عن مشاريعك المستقبلية ؟

أجاب سوينكا قائلاً : من الأفضل أن نسرع بتشغيل المسرح بكل ما لدينا من حب وعطاء وكم أتمنى أن أتفرغ طوال حياتى للمسرح فأنا أستطيع بالمسرح أن أحقق وجودى إلى أقصى درجة .

إن هذه الإجابة كافية تماماً لتوضيح مدى عشق سوينكا للمسرح .

إن إعجاب سوينكا بالمسرح يكمن فى حريته الكاملة فى التعامل مع أدواته غير أن هدف المسرح - كما يقول - لا يعنيه أى أنه ليس ملزماً بالتعليم والتنوير وبث الأفكار فى عقول المشاهدين لكنه فى نفس الوقت يضع إلتزاماً لنفسه أمام الجمهور وهو ألا يغادروا المسرح قبل أن يكون قد قال شيئا .

من أهم أعماله المسرحية :

- (الأسد والجوهرة) .. أولى مسرحياته .

- (رقصة الغابات) .. كتبها عام ١٩٦٠ وتناول فيها إحتفالات الإستقلال وعلاقة نيچيريا بماضيها وقد نال عنها جائزة وعند عرضها على المسرح لاقت نجاحاً كبيراً .

- (العشيرة القوية) .. مسرحية من فصل واحد وهى أحب الأعمال إلى نفسه

- (الطريق) .. إستخدم فى كتابتها دلالة القناع .

- (محاكمة الأخ چيرو).. مسرحية كوميدية من فصل واحد تحكى حكاية خفيفة عن الشر الإنسانى وهنا أود أن أشير إلى أن الكوميديات تعد بالنسبة لكاتبنا أصعب الأعمال .

- **دوافع الإبداع عند سوينكا :**

بقراءة أعمال سوينكا المسرحية أو الروائية أو الشعرية نستطيع أن نتلمس فكرة بعينها تستولى عليه وهى أن البشر فى كل مكان بالعالم متوحشون يدمرون بعضهم البعض أو كما قال هونفسه : (إن الجنس البشرى ببساطة جنس متوحش)

ربما كانت هذه بعض الأفكار والمشاعر التى أشرنا لها فى البداية والتى إنعكست على روحه حين كان صبياً أثناء الحرب العالمية الثانية ونستطيع أن نلمسها بوضوح فى إبداعاته المختلفة إلى جانب البشاعة المستترة والشرور التى يرى سوينكا أنها سمة من سمات العالم الأوربى .

وكما كان الألم مثيراً للإبداع الفنى عند " ديستوفيسكى " والضمير الإنسانى المعذب عند : تولستوى " وكانت عقدة الإضطهاد عند

" فرانزكافكا " فإن التوحش والشرور والبشاعة هى دوافع الإبداع عند

سوينكا الذى لا يفكر فى المتلقى حين يكتب ولا يبالى بالجمهور حين يؤلف عملاً مسرحياً إذ لا يهمه ماإذا كان ذلك الجمهور من نيچيريا أم من أى بقعة فى العالم .. إنه يكتب وفى ذهنه أن القاعة مليئة بالناس وأن هؤلاء الناس يحسون ويشعرون وأن الكاتب لا يمكن أن يكتب عن لا شئ .

هكذا يكتب " وول سوينكا " داساً فكرته بين طيات أعماله وعليك أن تكتشف هذه الفكرة أو تلك والتى فى معظم الأحوال لا تخرج عن كونها فكرة إنسانية شاملة وهكذا شأن الكاتب المبدع الذى يتجاوز نفسه وبيئته إلى رؤية أبعد وإلى آفاق أكثر شمولا .

سمير عبد ربه

(١)

- آكية .. أرض متموجة ومترامية الأطراف وهناك عند مرتفعات (أوتوكو) كان إصطبل القس قريباً من رأس التل ثم ذلك الطريق المتعرج الصاعد من سوق صاخب إلى سوق آخر يطل على أكثر مداخل الدير سرية.

كانت كنيسة القديس بطرس التى يؤدون فيها صلوات الصباح والمساء باللغة الإنجليزية وكانت موسيقى الأرغن تدوى فى تلك الأمسيات .

كان القس متبلد الحس مثل بيته المربع الشكل ..ذلك البيت المشوه بشبابيك ذات إطار خشبى أسود حيث يحل ضيوف الإسبوع للإقامة وكان فناء الأساقفة فى أحد الأدوار ومن الطابق العلوى كان من اليسير رؤية قمة (أوتوكو) غير أن رؤية البوابة كانت متعذرة بعض الشئ .

كانت فصول المدرسة الإبتدائية فارغة فى الليل يحيط بها بستان الفاكهة حيث كنا نختبئ وكانت الخبيزة طازجة والهواء مشبعاً برائحة أوراق الليمون والجوافة والمانجو وممتزجاً برائحة أشجار (البوم بوم) وإقرازات المطر المتساقط على الأوراق الظليلة الواسعة الإنتشار .. لكن شجرة الأناناس فوق الآكاسيا وغابات البامبو دائماً ما كانت تجعلنا غاضبين إذ لم تكن تصلح إلا سكناً مثالياً للثعابين إذا ما كان للثعابين ثمة إختيار .

كان بستان الفاكهة فى الجانب الأيسر لبيت القس وملعب المدرسة بما فيه

من نباتات وفاكهة مكانين لرجال الدين ودروس الكنيسة وتلك المواعظ المملة وكان نبات (كاناليلى) بأوراقه المزركشة باللون الأبيض والأحمر مُبقعاً ببقع بيضاء كثيرة ولم يكن أحد يستطيع أن يفسر وجود هذه البقع ولما كان المسيح مُسمراً إلى الصليب وجراحه تتدفق بالدم فقد قيل بإنها ربما كانت نوعاً من رجم الخطايا فى دم المسيح .

لكن شجرة الرمان كانت هى سيدة البستان .. لم تكن تنمو كثيراً من بذور الكنيسة بقدر ما كانت تراتيل أيام الآحاد تساعد فى نموها .. كان البستانى بيده المعروفة ووجهه المألوف لدينا هو الذى يعتنى بشجرة الرمان مرة واحدة كل حين ولذلك فقد كان إنتاجها قليلا .

قال البستانى : إنها تنمو هنا فقط .. هنا فقط تنموشجرة الرمان !!

كان من الغريب أن تنمو فى هذه التربة لكن مطراناً سابقاً من الرجال البيض جاء معه بالبذور وزرعها فى البستان .

تساءلنا عما إذا كان تفاحاً ..

ضحك وأجاب بالنفى ثم أضاف : وهل يوجد التفاح فى تربة الرجل الأسود ؟

قبل الفجر بقليل كان تغريد الطيور يملأ البيت وكانت أسراب من الخفاش تسكن شجرة التين التى كانت تنتشر بذورها فوق الأحجار والخضرة والممرات

والشجيرات .

كنت أستلقى فوق الخضرة أمام منزلنا متطلعاً بوجهى إلى السماء ورأسى بإتجاه فناء الأساقفة بينما قدمى إلى السياج الداخلية لبيت القس وكنت أرى من تلك الفضاءات المنخفضة نصف مدرسة البنات الإنجليزية والنصف الآخر من فناء الأساقفة . . كانت المنطقة المنخفضة تحتوى على فصول الصغار وحجرات نوم الطلبة وحديقة فاكهة صغيرة من الجوافة والخيزران وبعض النباتات الأرضية وفى موسم الأمطار كانت توجد دائما تلك القواقع بأشكالها المختلفة وفى المنخفض الآخر حيث كنا ننام من وقت لآخر كان بائع الكتب وهو رجل ضعيف متغضن له زوجة هادئة وجميلة ..كنا نستمتع ببعض التأملات فى ذلك المكان الفسيح الذى يقطع الطريق المؤدى إلى (إيبارا) وكان هو المكان الوحيد فى بيت القس الذى توجد به بئر للمياه فكان فى موسم الجفاف مزدحماً بالناس كما كانت أشجار جوز الهند تنمو فى ذلك المكان .

كان الأسقف (أجايى جروثر) يظهر أحياناً من بين مجموعة نباتات الزينة بزيه الرسمى ووجهه الخرافى وعينيه الجاحظتين وهويحدِّق فينا .

قال المدرس : منذ أن عاش فى بيت الأساقفة وهو يحدِّق من خلال النباتات المتسلقة .

كلما مررت ببيت الأساقفة فى مهمة إلى عمتى الكبرى (مسز ليجادو) عرفت أنه لم يعد سوى منزلاً لبنات المدرسة وملعباً إضافياً لنا أثناء الأجازات

جلس الأسقف بهدوء على مدرج خشبى عند المدخل وكانت ملابسه مثل النبات المعترش .. تحركت بالقرب منه وحين رمقنى بعينيه تعجبت لتلك الصورة التى يبدو عليها بردائه الكهنوتى وأيضاً لتلك السلسلة الفضية التى تصل حتى الجيب .

إبتسم إبتسامة عريضة ثم قال : إقترب أكثر .. سأجعلك ترى

كانت السلسلة تنتهى بساعة للجيب تومض بالفضة وحين تحركت باتجاه الشرفة رسم الأسقف على السلسلة حلقة دائرية كاملة وضغط على مفتاح الساعة فظهرت إلى جانب الزجاج سحابة عميقة ملأت الفضاء وعندئذ طرف بعين واحدة فسقطت السحابة من وجهه إلى تجويف الساعة ثم طرف بالعين الأخرى فسقطت سحابة أخرى إلى الساعة وأعاد غلق الغطاء فجأة وهو يومئ برأسه الصلعاء .. إختفت أسنانه وشد جلده حتى تكشفت العظام ثم وقف وخبأ الساعة فى جيب المعطف ..تحرك خطوة ناحيتى فهربت باتجاه المنزل .

- كان بيت الأساقفة أكثر جمالاً وروعة من بيت القس .. كانت تحيطه الأحجار البيضاء النظيفة والزهور الجميلة وكانت الصخور المظللة منتشرة في

كل مكان تزيد السحب من فتنتها وروعتها وعند هبوب العواصف القوية كانت أوراق الشجر تروح وتجئ مع الرياح حتى تتدلى فوق بيت الأساقفة .

كذلك كان واضحاً أن الأساقفة لا يعملون على تحدى الأرواح مثلما كان القساوسة يفعلون وكانت رؤية الأسقف (أجايى جروثر) متجولاً خارج بيت القس تخيفنى

أشارت أمى إلينا قائلة : لماذا تجلسون هنا ؟ .. أليس هذا وقت حمام المساء ؟

ثم نادت بصوت عالٍ : (لاوانل)

أجابت الخالة (لاوانل) : " ما "

كنت أسأل كثيراً عن الخال (سانيا) وعن الأشباح والأسقف (جروثر)

قالت أمى : ألن تكف عن الأسئلة ؟

دخلت (لاوانل) قائلة : هيا إلى الحمام ياأطفال .

لكننى أجبت : لا .. إنتظرى أيتها الخالة

أمسكت بذراع كل منا وأنا أصرخ : هل كان الأسقف (جروثر) شبحاً ؟

ضحكت أمى قائلة : إنه لا يتوقف عن الأسئلة .

كان (چى - چى) إبن عم أمى مسافراً فى إحدى جولاته الكثيرة التى يقوم بها راكباً أو سيراً على قدميه من أجل الدعوة إلى كلمة الله وليبقى على إتصال دائم بكل فروع الأبرشية .. كانوا يستقبلونه فى كل مكان ولم يكن ثمة شئ يمنعه من القيام بمواعظه

تلاشى بستان الفاكهة وقضى الماعز على صفوف الليمون الذى كانت أعشابه علاجاً للحمى والصداع .. كنا نتناول قطعة من الإسبرين أو قطعتين مع فنجان من الشاى بعشب الليمون الساخن قبل النوم كعلاج وكانت رائحته العطرة نوعاً من التغيير كبديل عن الشاى المعتاد .

مع الوقت تلاشى أيضاً ذلك النصب التذكارى الأبيض بشكله المربع الذى كان يحاذى الصخور المطلة على بيت القس والذى من خلاله كنت ترى الزائر وهو يدخل البوابة .

كان سيد ذلك البيت قوياً مثل الصخور ..كان أسود ضخماً وله رأس جرانيتية وأقدام هائلة ويدعونه غالباً بالقس أو الكاهن أو المحترم أو كما كانت تدعوه أمى (باديلومو) .. كنا كثيراً ما نخرج مع أمى فى حملتها الشرائية أو لزيارة الأقارب أو لبعض أغراض أخرى لم نكن ندركها ودائما ما كنا نعود بإنطباعات غامضة عن رؤية شئ ما وكان الإبتهاج يتملكنا دائما رغم شعورنا بالإجهاد الشديد لأننا غالباً كنا نسارع فى إعداد أنفسنا وارتداء ملابسنا وتمشيط شعرنا بالإضافة إلى أننا كنا نسير على أقدامنا معظم الطريق

وحدث ذات مرة أن تسلقنا الطريق العالى وتجاوزنا مدخلاً رائعاً وأعمدة بيضاء وكان مكتوباً على اللوحة : (المقر) .. كان من الواضح أن رجلاً أبيض يعيش هنا وكانت البوابة فى حراسة شرطى يرتدى شورتاً فضفاضاً ويحملق فى وجوهنا .. كان المنزل خلف التل تغطى الأشجار جزءاً منه وقد وقعت عيناى على خرطومين أسودين ثقيلين مسنودين بعجلات من الخشب وواقفين على أعمدة وكأنهما يشيران إلينا مما أثار إنتباهى ..كانت كومة من الكرات المعدنية الدائرية بحجم كرة القدم إلى جانب كل خرطوم ..

قالت أمى : إنها مدافع تستخدم فى الحروب

قلت : لكن بابا يدعو (باديلومو) بالمدفع .. لماذا ؟

شرحت لنا الفارق لكننى كنت قد عرفت الإجابة الخاصة بى .. إنها الرأس .. إن رأس (باديلومو) تشبه كرة المدفع ، ولهذا كان يدعوه بابا بالمدفع وكان كل شئ عن المدافع يستدعى وجود الرجل ، وقوته وصلابته .. كانت المدافع غير قابلة للتحرك أو التخريب وكذلك كان هو وكأنه قادر على قهر أى شئ .. عند زيارته لنا كان يشغل الحجرة الأمامية بكاملها ولم تكن تناسبه سوى الردهة الواسعة والكرسى ذى المسندين .. شعرت بالأسف على كتبه الدينية وعلى القس الأعظم وراعى الأبرشيه ومساعديه فقد كانوا تافهين مثله وفقراء الروح مثل فأر الكنيسة .

كان العم (رانسوم كوتى) أحد الرجال الذن يأتون إلى منزلنا يرتدى قلادة دائرية وكانوا جميعاً ينادونه (داودو) وكان دائما يتفوق على نفسه

كان (باديلومو) يفزعنى بوجوده إذ لم يكن يسيطر على بيت القس وإنما على آكية بأسرها وكان أكثر نشاطاً من (كابينزى)

كانوا فى الغالب يتمددون على الأرض وكان أحدهم الأسقف (هاولز) الذى يعيش فى عزلة ليست ببعيدة عن منزلنا .

كان القس دائم الحضور للنقاش مع أبى وأحياناً كانت تبدو المناقشة خطيرة وهامة وفى أحيان أخرى كنت أسمع ضحكاته تسرى فى المنزل لكنه وأبى ما كانا يختلفان .. نعم .. لم أسمعهما أبداً يختلفان فى مناقشتهما عن الله كما كان يفعل أبى مع بائع الكتب وأصدقاءآخرين وكنت فى البداية أخاف كثيراً من تلك المناقشة فى أمور الدين وخاصة حين كان يتحدث بائع الكتب بصوته العالى ورقبته التركية والذى كان طبيعياً على عكس القس الذى كان يبدو قوياً فكانت المنافسة غير متكافئة وتعد خطراً على بائع الكتب .

فى كل المناقشات كان (إسحق) مدافعاً شريراً .فى البداية كانوا يدعونه (S.A) أو (H.M) أو السيد ولأسباب أخرى كان أصدقاؤه يدعونه (إس – إيه – شو) وقليلون من كانوا ينادونه بإسمه.. تعجبت لكثرة أسمائه غير أننى فى نهاية الأمر لم أستطع أن أقتنع بذلك الكلام المنُتقى وتلك

المناقشات العقيمة .

كان خط (إسحق) جميلاً وكذا كانت ملابسه أما عن عاداته فى الأكل فقد كان مصدر تعجب من الأم ولم يكن يشرب أبداً بين الأكل ولا حتى رشفة واحدة وكان يثور أحياناً أثناء المناقشة مثل بائع الكتب وحين كان يطرف بعينيه الصغيرتين فإنه يكون أكثر حدة .

- كانت زوجة بائع الكتب إحدى أمهات لنا كثيرات وكان جمالها بليداً وبشرتها سوداء فاحمة وطيبة إلى حد كبير .. كانت هى وأمى أول من يجيب علينا إذا ما إختلفنا حول سؤال ما ولم تتسبب أبداً فى إزعاجى خاصة فيما يتعلق بأفكارى وتساؤلاتى وكانت على النقيض من زوجها ذات قلب كبير وكان ظهرها الكبير أكثر أماناً وراحة من ظهور نساء كثيرات حملننى فوق ظهورهن .. كان ظهرها ناعماً يبعث على الأمان والهدوء والطيبة التى ترتسم على وجهها .

حين كنا ننام فى منزلها كانت تسأل الخادمة أن تعتنى بطعامنا ونومنا وكانت تعمل على حل أى مشكلة نقع فيها ولما كانت ماما تلاحقنا بالعصا كانت تدافع عنا قائلة : لا .. لا .. إضربينى بدلاً منهم .. يالها من إمرأة طيبة .. كانت طيبة ورقيقة .

كانت (بوكولا) إبنتها الوحيدة ولم تكن (بوكولا) من عالمنا فقد كانت

تبدو لى أنها أحد ساكنى العالم الآخر .. كانت (بوكولا) مقيدة إلى الأرض بتلك التعاويذ والأحجية والخلاخيل التى ترتديها فى ركبتها وأصابعها وخصرها ركانت تعرف بأنها * ábikú ولم يحدث أن تجرأ والداها على توبيخها لمدة طويلة أو بشكل حاد .

إنسحبت عينا (بوكولا) فجأة نحو الداخل ولم يظهر منهما سوى البياض فبادرت (تينى) بالجرى ووقفت بالقرب منا ورحت أسأل (بوكولا) هل ترين ما تفعلينه بعينيك ؟

- إنه الظلام .. ظلام فقط .
- هل تتذكرين أى شئ عن العالم الآخر ؟
- لا .. لكن ذلك يحدث حين أكون فى حالة من النشوة .
- وهل تقدرين أن تكونى فى هذه الحالة .. أعنى حالة النشوة ؟

كانت (تيتى) تهددنى من بعيد أن تخبر أبى وأمى إذا لم أتوقف عن تساؤلاتى .

أجابت (بوكولا) بأنها تستطيع فقط إذا كنت قادراً على إعادتها إلى

---

* Àbikú الطفل الذى يولد ثم يموت ثم يولد ثم يموت وهكذا .(المترجم)

حالتها الأولى لكننى لم أكن متأكداً من قدرتى على ذلك فنظرت إليها بإمعان وتعجبت لقدرة أمها على التحكم فى ذلك المخلوق الميت .

كانت الأجراس فى ركبتها تصدر أصواتاً كالخشخشة وهى تحادث أصدقاءها من العالم الآخر ؟

• هل تسمعينهم فعلاً ؟

• غالباً .

• ماذا يقولون ؟

• لا شئ .. إننى فقط أذهب وألعب معهم .

• ألا يجدون من يلعب معهم ؟ ولماذا يضايقونك ؟

هزت كتفيها فى لا مبالاه وأحسست بالأسى ثم خطرت ببالى فكرة..

• لماذا لا تأتين بهم إلى هنا ؟ .. حين يستدعونك فى المرة القادمة قدمى لهم الدعوة للحضور ومشاركتنا اللعب .

هزت رأسها قائلة : إنهم لا يستطيعون .

• ولم لا ؟

• لأنهم لا يقدرون على الحركة كما نفعل نحن كما أنك لا تستطيع الذهاب إليهم.

لم تكن (بوكولا) تشبه (تينى) أو تشبهنى أو حتى أصدقاءها فى العالم الآخر .. كانت وحدها التى تستطيع العبور بسهولة من عالم إلى آخر.

شاهدتها ذات مرة وهى تعانى نوبة دوار .. كانت عيناها جاحظتين وأسنانها مطبقة بينما كان جسدها يترنح وأمها تبكى وتقول : ساعدنى .. إنها تعانى برداً شديداً .

ثم راحت بيأس تدلك جسدها كى تعيد إليها الحياة حين سارع والدها بالحضور من المكتبة عبر الباب المجاور وفتح فمها بقوة .. إنتزعت الخادمة الزجاجة من الدولاب وصبت بعض السائل فى حلقها لكن (بوكولا) ظلت على حالها لكنها بعد لحظات تجاوزت الخطر وقل التوتر بين أهل البيت .. تمددت على السرير وعادت إلى وعيها تماماً واكتسى وجهها بجمال أخاذ فجلست أنا و (تينى) بجوارها نتأملها حتى إستيقظت .. كانت أمها مشغولة بإعداد شوربة السمك وفى العادة كنا جميعاً نأكل من نفس السلطانية لكن زوجة بائع الكتب وضعت هذه المرة بعضاً من الشوربة فى إناء صغير وأضافت إليه سائلا ثقيلاً من الزجاجة وكان مالحاً وذا طعم ردئ ورائحة كريهة .. رفعت رأس إبنتها تساعدها فى إحتساء مشروبها الخاص وقمنا نحن بإحتساء الشوربة .. شربت (بوكولا) جرعتها بدون أية شكوى فقد كانت تعرف ذلك

المشروب وحين تجاوزت (بوكولا) الأزمة بادرنا بالخروج كى نلعب لكن أمها أصرت على بقائنا .

أخبرت (بوكولا) عن الأزمة التى مرت بها وقلت : هل كان زملاؤك ينادونك أثناء ذلك ؟

قالت : لا أتذكر .

• لكنك تستطيعين فعل ذلك وقتما تشاءين !

• نعم .. خاصة حين يفعل أبى أو أمى أو الخادمة شيئاً يضايقنى .

• ولكن كيف يحدث ذلك ؟ كيف فعلاً يحدث ذلك ؟ إن عينيك تتحولان إلى اللون الأبيض .

• حقا !! .. هل يحدث ذلك ؟ .. كل ما أعرفه أن ....

توقفت برهة عن الحديث ثم إستطردت : عندما يرفض أبى أو أمى طلباً لى أو يقولان لى لا فإننى عندئذ أسمع زملائى الآخرين يقولون : (هل ترين .. إنهم لا يريدونك معهم وهذا ما قلناه لك)

فيخامرنى شعور جارف بالذهاب بعيداً وأقول لأبى وأمى : سوف أذهب .. سوف أذهب إذا لم تفعلوا كذا وكذا وإذا لم يفعلا بالفعل فإننى أشعر بالإغماء ويصيبنى الدوار .

• وماذا يحدث إذا لم تعودى كما كنت ؟

• لكننى دائماً أعود .

لم تكن زوجة بائع الكتب تنزعج من طفلتها الخرقاء .. كانت إمرأة طيبة ورقيقة وكما عرفنا فيما بعد أن (بوكولا) لم تكن قاسية فهكذا شأن أل A´bikú إذ ليس بمقدورها التحكم فى نفسها .

فكرت فى كل الأشياء التى كانت (بوكولا) تسأل عنها والأشياء التى يعجز الوالدان عن تحقيقها فقلت لها : ماذا لو عجزوا عن تلبية طلب مثل سيارة فاخرة مثلاً ؟

قالت بإصرار : لابد أن يقوموا بما أطلبه .

قلت : لكن ثمة أشياء ليست في مقدورهم إذ أن الملك نفسه لا يملك كل شئ.

قالت : حدث فى آخر مرة أن طلبت عمل سهرة فرفض أبى قائلاً : كانت لنا سهرة منذ وقت قريب فأصابنى الدوار والأغماء .

إعترضت (تينى) وقالت : لكن الواحد منا لا يستطيع القيام بسهرة كل يوم.

أجابت بعناد : أنا لا أقوم بعمل سهرة كل يوم ويومها لم أكن أطلبها لى

فقد كانت لزملائى حين أخبرونى أن أرتب لهم سهرة ما دمت لا أستطيع الذهاب معهم .

كنت ألاحظها بدقة حين هزت كتفيها بلا مبالاه وتغير وجهها الدائرى الجميل فهل كانت تدبر رحيلاً آخر ؟ !

(٢)

- فى كل صباح كانت (تينى) تذهب للمدرسة قبل أن أستيقظ وكانت تعود عند منتصف النهار حاملة لوح الكتابة .. كانت ترتدى الزى الكاكى مثل كل الأولاد الذين كانوا يتحركون فى شكل دائرى بغير نظام حول البيت منذ الصباح وحتى ما بعد الظهر مشغولين باللعب أو الدرس .

كان أحدهم فى ساعة الصباح يشد السلسلة المتدلية من جرس المنزل فيبدأ الجرس فى الرنين وتبدأ التحركات حول مبنى المدرسة وثمة بهلوانيات وسباق وشجار بين التلاميذ حتى ينقسموا إلى مجموعات كثيرة وعندما يسود النظام يظهر الأب من حيث لا أدرى بخطواته الكبيرة ويخطب فيهم ثم ينتحى جانباً فيتقدم أحد أعضاء المجموعة الكبيرة للأمام ويغنى بينما يسير الآخرون إلى مبنى المدرسة فى صفين على إيقاع الأغنية .

كانت الأغنية تتغير كل يوم وكنت أطرب لأغنية بعينها كانوا يغنونها بمتعة أكثر من بقية الأغانى حتى إنهم كانوا يرقصون عليها بدلاً من المشى ولم يكن ذلك يضايق المدرسين وإنما كانوا يبتسمون فى وجوههم ويشيرون إلى التلميذ الذى يقرع الطبول وهو يخفض أكتافه بطريقة ملفتة للنظر .

كانت الأغنية باللغة الانجليزية لكن الكورس كان يغنى بلغة اليوروبا واستطعت فقط أن أسمع الكلمات الأخيرة

B'ing njo maJe'ko

B'ole nja,ma Je'ko

Eni ebi npa , omo wi ti're *

لم أسمع من قبل مثل ذلك الغناء المليء بالحياة فى أى مدرسة أخرى لكننى سمعته فقط فى تلك المدرسة التى إلتحقت بها أختى وبدأت غيرتى تزداد يوماً بعد يوم فشعرت أختى بتلك الغيرة وراحت تراوغنى بعدم الإجابة على أسئلتى أو إشباع رغبتى فى التعرف على الأجزاء الناقصة من تساؤلاتى .

« أنا ذاهب إلى المدرسة » .. هكذا أعلنت فى يوم ما فإنطلقت الضحكات فى الحال وقالت أمى فى هدوء : إنتظر حتى تكبر مثل أختك .

ذات مرة إختلست النظرات داخل مبنى المدرسة فكانت همهمات التلاميذ ذات نغمات غاضبة لم أستطع أن أتبينها ومن خلال الشبابيك المفتوحة لفصول المدرسة شاهدت رءوس التلاميذ فى حالة من التركيز وكان المدرس بهيئته الجليلة يتحرك فى حجرة الدرس جيئة وذهاباً وهو يتحدث إلى التلاميذ الذين يستمعون بإنتباه شديد وكانت تتبادر إلى سمعى أغنيات مختلفة من

---

* " إذا شب حريق فى البيت يجب أن أتناول طعامى
إذا سرقوا البيت يجب أن أتناول طعامى
إتركوا الطفل الجائع يتكلم . "

(٢)

- فى كل صباح كانت (تينى) تذهب للمدرسة قبل أن أستيقظ وكانت تعود عند منتصف النهار حاملة لوح الكتابة .. كانت ترتدى الزى الكاكى مثل كل الأولاد الذين كانوا يتحركون فى شكل دائرى بغير نظام حول البيت منذ الصباح وحتى ما بعد الظهر مشغولين باللعب أو الدرس .

كان أحدهم فى ساعة الصباح يشد السلسلة المتدلية من جرس المنزل فيبدأ الجرس فى الرنين وتبدأ التحركات حول مبنى المدرسة وثمة بهلوانيات وسباق وشجار بين التلاميذ حتى ينقسموا إلى مجموعات كثيرة وعندما يسود النظام يظهر الأب من حيث لا أدرى بخطواته الكبيرة ويخطب فيهم ثم ينتحى جانباً فيتقدم أحد أعضاء المجموعة الكبيرة للأمام ويغنى بينما يسير الآخرون إلى مبنى المدرسة فى صفين على إيقاع الأغنية .

كانت الأغنية تتغير كل يوم وكنت أطرب لأغنية بعينها كانوا يغنونها بمتعة أكثر من بقية الأغانى حتى إنهم كانوا يرقصون عليها بدلاً من المشى ولم يكن ذلك يضايق المدرسين وإنما كانوا يبتسمون فى وجوههم ويشيرون إلى التلميذ الذى يقرع الطبول وهو يخفض أكتافه بطريقة ملفتة للنظر .

كانت الأغنية باللغة الانجليزية لكن الكورس كان يغنى بلغة اليوروبا واستطعت فقط أن أسمع الكلمات الأخيرة

B'ing njo maJe'ko

B'ole nja,ma Je'ko

Eni ebi npa , omo wi ti're *

لم أسمع من قبل مثل ذلك الغناء الملئ بالحياة فى أى مدرسة أخرى لكننى سمعته فقط فى تلك المدرسة التى إلتحقت بها أختى وبدأت غيرتى تزداد يوماً بعد يوم فشعرت أختى بتلك الغيرة وراحت تراوغنى بعدم الإجابة على أسئلتى أو إشباع رغبتى فى التعرف على الأجزاء الناقصة من تساؤلاتى .

« أنا ذاهب إلى المدرسة » .. هكذا أعلنت فى يوم ما فإنطلقت الضحكات فى الحال وقالت أمى فى هدوء : إنتظر حتى تكبر مثل أختك .

ذات مرة إختلست النظرات داخل مبنى المدرسة فكانت همهمات التلاميذ ذات نغمات غاضبة لم أستطع أن أتبينها ومن خلال الشبابيك المفتوحة لفصول المدرسة شاهدت رءوس التلاميذ فى حالة من التركيز وكان المدرس بهيئته الجليلة يتحرك فى حجرة الدرس جيئة وذهاباً وهو يتحدث إلى التلاميذ الذين يستمعون بإنتباه شديد وكانت تتبادر إلى سمعى أغنيات مختلفة من

* " إذا شب حريق فى البيت يجب أن أتناول طعامى
إذا سرقوا البيت يجب أن أتناول طعامى
إتركوا الطفل الجائع يتكلم . "

أجزاء متفرقة من كل مبنى وفى بعض الأحيان كنت أسمع غناء مباشراً بمصاحبة موسيقى الهارمونى وبعد ممارسة الطقوس الداخلية والشعائر الدينية كانوا يخرجون فى مجموعات مختلفة يلعبون ألعاباً كثيرة ويقفزون فى كل مكان ويلتقطون الأوراق والأغصان التى تكسو الأرض ويكنسون الطرق ويقلمون المروج والأشجار .. كانوا يطوفون هنا وهناك يجرفون الأرض بالسيوف والمكانس والعصى وينحتون الخشب الخيزران ويقومون أيضاً بتشكيل الطين والصلصال إلى أشكال كثيرة وغريبة .

كنت أرى تلك النشاطات المختلفة من فوق رصيف منزلنا حيث ألعب وحدى بينما كانت العمة (لاوانل) تراقبنى بعينيها القلقتين .. كانوا يلعبون لعبة الدوائر ويتشاجرون على الكرة ثم يعودون إلى كتبهم وتمارينهم وألواحهم التى يكتبون عليها .. كانوا يضعون الكتب فى صناديق صغيرة من القصدير أو الخشب أو فى حقائب مصنوعة من ليف النخل وكان بعضهم يربطها بحبل ويحملها فوق رأسه أويعلقها فوق كتفه وهم ذاهبون إلى فصولهم للدرس وممارسة طقوسهم الدينية الغامضة .

– كنا ما نزال نلعب معا لكن (تينى) وزملائى صار لهم عالم جديد فى اللعب بدخولهم المدرسة .. أصبح لتينى مكان جديد تلعب فيه وترسم فيه وكانت تستيقظ مبكراً عنى فى كل صباح حيث يقودها واحد من الأولاد الكبار فى منزلنا إلى المدرسة فأصبحت ألعابى كلها بلا قيمة لكننى كنت

أضـحك رغم وحـدتى ولم أعـد أطلب اللحـاق بتـينى فـى المدرسـة غـيـر أننـى إستيقظت ذات صباح مع تينى واغتسلت فى نفس الوقت الذى تغتسل فيه ثم تناولت إفطارى وقـررت بإصـرار شـديد أن أرتدى تلك الملابس التـى هـى أقرب إلى زى المدرسة وتناولت بعض الكتب من فوق مكتب أبى ثم إنتظرت فى الحجـرة الأمـاميـة حـتى ذهبت (تينـى) مـع رفـيقـهـا ومـا هـى إلا بضـع دقـائق حتى حملت الكتب وتسللت وراءهما بخفة حتى وصلت المدرسة .. انتظرت قليلاً عند الباب ورأيت المقعد الذى تجلس عليه (تينى) ثم إندفعت متسلقاً المكان ووجدت نفسى إلى جوارها .

كانت (لاوانل) هى التى إصطحـبت (تينى) إلى المدرسـة فى ذلك الصـبـاح وعندما رأتنى صرخت بتحذير ودهشة : ما هذا الذى تفعل ؟

لم أهتم بها وكان أن سمع المدرس تحركات غريبة بين التلاميذ وعند دخوله الحـجـرة كـان جـمـيع التـلامـيـذ يضـحكون من وجـودى .. تطلعـوا نـحـوى وهـم يشيرون بإصابعهم من الأمام والخلف دون أن يتوقفوا عن الضـحك .

كان المدرس المسئول عن قسم الأطفال صديقاً لأبى وغالباً ما كان يأتى لمنزلنا فلم أجد صـعوبة فى التـعرف عليه وكم رافتـى أنه لم يكن يضـحك مـع الآخرين .

وقف أمامى وسألنى : هل جئت لمرافقة أختك ؟

* لا .. بل جئت من أجل المدرسة .

نظر إلى الكتب التى تناولتها من مكتب أبى وقال : أليست هذه كتب أبيك ؟

* نعم هى كذلك وأنا أريد أن أتعلم منها .

* لكنك ما زلت صغيراً يا (وول) !

* إن عمرى ثلاث سنوات .

قاطعتنى (لاوانل) : ثلاث سنوات يا (وول) !؟ لا عليك يا أستاذ إنه سيبلغ الثالثة فى يوليو القادم .

قلت : تقريباً ثلاث سنوات وعلى أية حال فلقد جئت إلى المدرسة ومعى الكتب.

توجه الرجل إلى مدرس الفصل قائلاً : سجل إسمه فى القائمة .

ثم بادرنى بقوله : وبالطبع فإنك لست مضطراً للمجئ كل يوم .. تعال فقط حين تشعر برغبة فى المجئ فقد تستيقظ غداً صباحاً وتشعر بأن رغبتك فى اللعب والبقاء فى المنزل أكبر من رغبتك فى المجئ إلى المدرسة.

نظرت إليه بدهشة وكانت الخرائط الملونة والصور والأشياء المعلقة على الحائط وتلك الشبابيك والأحجار الأردوازية وزجاجة الحبر ذات الثقوب الدائرية والأقلام وكتب الرسم ورسوم الحيوانات والإنسان والسبورة

والطباشير .. إنها حجرة جميلة للعب وسرعان ما فكرت فى أشياء كثيرة غامضة وارتبطت المدرسة فى ذ هنى بكومة من الكتب التى كان أبى يتحدث عنها باهتمام فى الحجرة الأمامية من المنزل والتى كانوا يخطفونها منى فور أن تمتد يدى إليها .

كل ذلك جعلنى أعلن بثقة : سوف أحضر كل يوم .

- أصبح منزل السيد (أولا جباچو) الأعزب الواقع خلف المدرسة هو منزلنا الثانى الذى نتناول فيه الغذاء وكانت البطاطاهى طعامه المفضل وسرعان ما أصبحت شريكه الحميم الذى تعرفت من خلاله على(أوزيكى) الذى أصبح بدوره صديقى القريب .. كان (أوزيكى) يعشق البطاطا أكثر منى ومن السيد (أولا جباچو) وكان طبيعياً أن يرافقنى حيث توجد وجبة الإيان • (iyan) فى منزلنا أو عند السيد (أولا جباچو) .

تملكتنى الدهشة حين سمعت أمى تقول : هذا الولد سيكون مثل أبيه .. إنه يأتى بالأصدقاء إلى المنزل فى وقت الطعام دون أن يخبرنا .

تعجبت وقلت لنفسى : لا أرى سبباً لإخبار أحد بذلك .. إنه لشئ طبيعى فى العالم أن يأتى الواحد بصديق إلى المنزل فى وقت الطعام .

أصبح (أوزيكى) صديقى الملازم لى وصار أحد ملامح منزلنا التى إعتدنا عليها وبخاصة فى أيام أل (iyan) حتى أن أحد أفراد منزلنا كتب له

• طعام يحتوى على البطاطا

أغنية تقول: osiki oko oniyan

Ati nwa e,a ko rie * (2)†††

وكانوا يبدأون فى الغناء فورأن يشاهدونا معا وكل منا ممسك بيد الآخر فى طريق عودتنا من المدرسة ...

كانت البطاطا اختباراً أولياً لصداقتنا .

– كنا نقضى ساعات المدرسة المنتظمة دون أى شعور بالملل لأن الاختلاف كان كبيراً بين فصل المدرسة والمكان الذى نعيش فيه .. كانت المدرسة بما فيها من شخصيات وأشكال مختلفة تعد إكتشافاً جديداً بالنسبة لى أنا الذى يهوى الجديد مما جعلنى أتأخر بعد ذهاب كل التلاميذ متوقفاً عند الأشياء التى تأخذ أشكالاً ومعانى وأبعاد مختلفة لم أرها من قبل .. أحيانا كنت أتسلق الصخور الممتدة وكان (أوزيكى) يفتقدنى حين يتقدمنى كثيراً ولا يجد لى أثراً .

– فى الثالثة عشر من يوليو عام ١٩٣٨ كان الجميع مستعدين .. إتجهت فوراً من المدرسة إلى المنزل بصحبة أعز الأصدقاء وعلى رأسهم (أوزيكى) .. خلعوا أحذيتهم فى الحجرة الأمامية وتوجهوا إلى الردهة وكان الضيوف جميعاً فى أحسن حالاتهم ينتظرون بشغف الطعام والشراب وسماع الموسيقى من الجرامفون وبعض الألعاب والتسلية ولأننى أنا الذى وجهت لهم الدعوة كنت أتصرف وكأننى رب البيت ثم جلست بينهم وانتظرت بداية الحفل

* أوزيكى .. سيد بائعى البطاطا .. بحثنا عنك فى كل مكان وفشلنا فى العثور عليك .

كان المنزل هادئاً فلم يكن إسحق قد جاء من المدرسة بعد وكانت أمى ما تزال فى دكانها مع (ديبو) الذى كان مربوطاً بشريط إلى ظهر العمة (لاوانل) .. ولكن أين الآخرون ؟ كان من الواجب أن تتواجد أمى لترحب بأصدقائى .. إن (تينى) أيضاً لم تكن بالمنزل وقد كانت تستطيع القيام بخدمتنا لأنها الآن قد كبرت بما يكفى .

خرجت إلى الحوش الخلفى لعلى أجد واحداً من أبناء عمى أو أرى ما يدل على الإعداد لعيد الميلادلكن أحداً لم يكن هناك وكان المطبخ فارغاً لم أستطع أن أشم فيه رائحة توحى بالطعام .. ناديت بأعلى صوتى معلناً عن وجودى مع الضيوف ثم صحت : أين أنتم .. أين أنتم ؟

أصابنى الإرتباك وعدت أتفحص الدولاب والمائدة فى حجرة الطعام فلم أجد شيئاً على الإطلاق .. لم أجد كئوساً من تلك التى يتبادلون بها التحية ولا أكواب ولا حلة الكعك أو الأرز .. كيف أتصرف إزاء عيد ميلادى .. لم يكونوا فى حاجة إلى من ينبهم بذلك .. راجعت التاريخ فى النتيجة مرة أخرى لأطمئن نفسى فكان هو نفس اليوم ثم جلست مع ضيوفى فى إنتظار حدوث شئ ما .

جاءت أمى بعد لحظات و(ديبو) فوق ظهرها ثم تبعتها (لاوانل) وآخرون حاملين الأشياء التى يأخذونها معهم كل صباح إلى الدكان ..هزت أمى رأسها وحركت عينيها بطريقة غريبة ثم توقفت عند الردهة وأطالت النظر إلى أصدقائى ورمقتنى بنظرة خاصة دون أن تتوقف عن هز رأسها وسارعت إلى المطبخ حيث سمعتها تصدر أوامرها بسرعة تجهيز الأوانى .. أومأت للضيوف

برأسى وشعرت بالرضا ثم قلت لهم : سوف نبدأ الإحتفال بعد قليل .

تقدمت (تينى) وأخبرتنى أن أمى تريدنى فى المطبخ ..كانت يداها تغوصان فى الدقيق الذى تعجنه وقالت دون أن تنظر لى : والآن يا (وول) أخبرنى لماذا جاء أصدقاؤك ؟

كان السؤال غريباً لكننى أجبت : إنه عيد ميلادى !

قالت بتهكم : عيد ميلادك !

بينما كانت (لاوانل) والآخرون يضجون بالضحك حيث إستطردت أمى : أتعرف بأنكم كنتم ستنتظرون طويلاً لو لم تكن (تينى) قد جاءت وأخبرتنى !

أشرت إليها بأن اليوم هو عيد ميلادى فقالت بنفاد صبر : لا أحد ينكر هذا لكننى كنت أنوى أن أصنع شيئاً خاصاً هذه الليلة ولكن ... إستمع ... لا يجب أن تدعو أحداً إلى البيت دون إخبارنا .. هانحن لا ندرى ماذا نفعل .. يجب أن تقول لنا .

أزعجنى ذلك التوبيخ وصرت قلقاً بضع لحظات ولم أجد أعذاراً أتقدم بها ففقد عيد ميلادى كثيراً من بهجته التى إفتقدتها أيضاً فى بيت القس يوم وقعت فوق رأسى من على الأرجوحة .

عندما جاء دورى فى التسلية رحت أغنى وكانوا يرددون ورائى بينما (أوزيكى) يطرق فوق المائدة بمهارة طرقات متناغمة : (كو .. كو .. تى .. كو

.. كو ...)

سألته أمى بمزاح : هل عملت طبالاً من قبل مع المتنكرين ؟

كانت دهشتنا عظيمة حين أجاب : نعم وكنت أرتدى قناعهم الذى يمرون به فى المدينة فى عيد « إيجونجون » egúngún* (1) السنوى .

كنت أشاهد egúngún من قبل فى الحوش الخلفى فوق الحائط وهم جالسون فوق أكتاف جوزيف وكنت أعرف بأنهم أرواح الموتى وأسمعهم يتحدثون بأصوات نابعة من الحنجرة وكانوا يجلبون الخوف أكثر من اللصوص وفى وقت مالا حظت أن كثيراً منهم يلعب ويمرح مع الأطفال وذات مرة كنت قريباً من أكتاف جوزيف عندما مر أحدهم بالقرب من الحائط ونظر إلى أعلى وهو ينادى ملء فمه بطريقة مألوفة : (2) Nle o.omo Tisa gba•

تعجبت لكونهم يعرفوننى فشرح لى جوزيف بأنهم يعرفون كل شئ عن كل الأحياء كما أنهم يعيشون مثلنا وفى حفل عيد ميلادتزاحمنا حول (أوزيكى) وسألته : أريد أن أراهم .

إرتفع صوت ماما بالتحذير قائلة : ماذا تريد ؟! هل حقاً ما سمعت بإنك تريد الذهاب لرؤية egúngún فى بيتهم ؟!

قلت متجاهلاً إياها : (أوزيكى) .. هل ستأخذنى ؟

---

* (1) egúngún : أرواح الموتى (المترجم)

* (2) Nle o.omo tisa Agba : تحياتى يا إبن المدرس الأول (المترجم)

أجابت : (أوزيكى) لن يأخذك ومن الأفضل ألا يسمعك أبيك .

* ولم لا ؟ هو أيضا يستطيع أن يأتى ..نستطيع أن نأخذه يا أوزيكى) .. أليس كذلك ؟ .. إنه رجل والنساء فقط هن اللأتى لا يستطعن الذهاب إلى هناك

تطلعت أمى حولها ومضت نحو (أوزيكى) وهى تهز رأسها كى تسمع بعض الحكايات عن الأنواع المختلفة من egúngún .. كان لهم الكثير من الحيل والخدع السحرية وكانوا يحولون أنفسهم إلى ثعابين ونمور وخراف ثم يعودون مرة أخرى كما كانوا ولقد شاهدت بعضاً منهم يلعب الأكروبات فوق الحائط ويقفز فى الهواء إلى الأمام والخلف .

سألت (أوزيكى) : هل أقدر أن أعود مثلهم إذا مت ؟

قال : لا أعتقد فلم أسمع أبداً عن مسيحى أصبح egúngún .

* هل يتحدثون الإنجليزية فى عالمهم ؟

هز (أوزيكى) كتفيه دون إهتمام : لا أعرف لكن egúngún الخاص بنا لا يتحدثون الأنجليزية .

كانت صورة ثلاثة من الرجال البيض مرسومة فوق زجاج الشبابيك خلف مذبح كنيسة القديس بطرس وكانوا يرتدون أرواباً تشبه كثيرا أرواب egúngún .. أحسست بشئ غريب نحو تلك البلاد التى جاء منها أولئك الناس ذوى اللون الأبيض .

كنت أحدِّق فى الوجوه الثلاثة حين قالت (تينى) : إنهم ليسوا egúngún .. أنهم الرسل والثالثة للقديس بطرس نفسه .

* وأذن لماذا يرتدون نفس ملابس egúngún ؟

* إنهم مسيحيون وليسوا متنكرين .

* إنهم ميتون .. أليس كذلك ؟ لقد أصبحوا egúngún لأنهم يرتدون هذه الأرواب دعينا نسأل (أوزيكى) .

قال (أوزيكى) : لم أسمع حتى الآن عن أى مسيحى أصبح egúngún

ثم إبتسم فجأة واستطرد : إنتظر .. لقد تذكرت .. قال لى أبى منذ سنوات مضت أنهم رأوا أل egúngún الخاص (بأچيل) .. هل تعرفه ؟ .. كان ضابط المنطقة هنا من قبل .

رحت ألف وأدور حول (تينى) بفرح شديد وتملكنى شعور بالنصر ثم قلت : هل ترين .. أستطيع الآن أن أتحدث إليهم من شباك الكنيسة حين يأتون .. أننى متأكد يا (تينى) أنهم يتحدثون الإنجليزية .

* أنت لا تعرف عما تتحدث .. أنت طفل صغير .

ثم نظرت تينى إلينا باحتقار وتركتنا وحيدين

قلت لأوزيكى : لا تشغل بالك بها فهى تعرف بأننى أحب ذلك الذى فى الوسط .. إنه القديس بطرس

وقد قلت لها من قبل أنه egúngún الخاص بى .. إذا ذهبت معك فقد

نستطيع بعد ذلك الذهاب إلى مقبرة الكنيسة ونساعده على الخروج من الأرض بنفس الطريقة .

قال (أوزيكى) ساخراً : بوجهه المكشوف مثل هذه الصورة ؟

فقلت : لا .. بالطبع لا .. إن هذه صورته فقط لكنه عندما يأتى من الأرض سيكون مرتدياً ملابسه وسأكون قادراً على محادثته .

شعر (أوزيكى) بالإجهاد ونظر إلىّ قائلاً : أنا لا أعرف .. فعلا لا أعرف إذا كان حقاً سيصبح egúngún !!

* لكنك قلت منذ قليل أن egúngún الخاص بضابط المنطقة قد خرج فى موكب من قبل .

حاول (أوزيكى) أن يشرح : لم يكن نفس الشئ ..

ثم إعترف أخيراً بأنه حقاً لا يفهم فقلت له أن ضابط المنطقة كان مسيحياً وذا لون أبيض .

كان (أوزيكى) خائفاً وشعرت بخيبة أمل شديدة لعدم معرفتى إحضار الروح الخاصة بالقديس بطرس بدون خبرته .

(٢)

- كان السور الحديدى عالياً بالنسبة لى أنا الصغير ولم أستطع أبداً أن أتسلقه كما يفعلون وهم واقفون عليه متطلعين إلى الخارج معلقين على ما يشاهدون .. حاولت كثيراً أن أتسلق إلى جوارهم لكننى كنت أحتاج لجهود عظيمة وكان من الخطر أن أفعل .

- شاهدنى (جوزيف) ذات يوم وقرأ فى عينى تلك الرغبة فرفعنى عالياً فوق أكتافه واستطعت من فوق سور الفناء أن ألقى بأول نظرة .. كانت مجموعة من الراقصين تعبر الطريق المؤدى إلى النصب التذكارى خلف الكنيسة هى أول ما وقعت عليه عيناى .

قال (جوزيف) : إنه القصر .

كنت قد تعرفت على الكنيسة والنصب التذكارى وبعض ملامح الأرض الممتدة ثم البوابة الكبيرة للبيت الكبير وأدركت أن الأسوار الخارجية لبيت القس كانت متصلة ومتلاحقة وعن طريقها يمكن الوصول إلى البوابة والشبابيك ولما كنت ما أزال فوق كتفى (جوزيف) رأيت سور المخزن حيث يحفظون أوانى الطهى وأدوات الحديقة وسور المخزن الآخر الذى يحتوى على خشب الحريق والدجاج وتوقفت عيناى أمام منزل القس المنتهى بسياج صغير يؤدى إلى بوابة البيت عبر مدرسة البنات المنخفضة متعامداً مع المكتبة

كانت المكتبة هى المبنى الوحيد فى البيت الكبير الذى يواجه الشارع ..

بامتداد السور كانت بعض النوافذ القليلة للتهوية وتجديد الهواء وغالباً ما

كانت تغطى السور أشكال مختلفة من أوراق الموز المنسابة والجوافة وأوراق النبات الشائكة التى جرحتنى فى وجهى وكان واضحاً أننا هنا فى هذا البيت الكبير نعيش مع أنفسنا فى مدينة منفصلة عن " آكية " تلك المدينة المتصلة بأسقف صدئة ..كانت بقية الأشياء غامضة تتخللها بعض الشقوق .

فى المرة التالية حين سمعت نفس الأصوات لم أضايق نفسى بمحاولة تسلق السور .. كنت أعرف أننى لم أستطع على أية حال وأننى قد عرفت مكان البوابة فأستطيع عندئذ المرور من خلالها إلى الطريق المؤدى إلى الكنيسة بمساعدة (لاوانل) أو بالامساك بيد (جوزيف) أو يد ماما حيث يمكننى خارج البوابة الرؤية بوضوح أكثر دون أن أبذل مجهوداً كبيراً لمشاهدة كل الأشياء من السور .

عند البوابة تعجبت وأصابنى قلق كبير فلم يكن بمقدورى أن أصل إلى المسمار الخشبى الذى يفتحون به القفل .. طرقت بيدى فوق البوابة طرقات قوية متتالية فقام شخص ما بفتحها .

كانوا جميعاً غرباء فلم يسبق لى رؤية تلك الوجوه من قبل ثم سألت نفسى : هل هم مجرد عابرين بالمكان جاءوا إلى البوابة من أجل رؤية أوضح ؟

نظروا نحوى بطريقة غريبة لكنهم أفسحوا لى الطريق إلى المقدمة ومما أثار دهشتى أنهم كانوا يرتدون زى البوليس وطربوشاً أحمر تتدلى منه الأزرار وكان أحدهم يربط حول خصره طبلة كبيرة جداً حتى قلت أنه سيقع لكنه كان متماسكاً بجلده الأبيض وكانت نظراته مثبته بإحكام إلى الأمام

وذراعاه تلوحان فى الهواء ضارباً بالعصا فوق الطبلة وكان قائدهم يرتدى صولجاناً كبيراً يقذف به فى الهواء عالياً فى حركة دائرية ثم يقوم بإمساكه بين يديه وهو ينزل فى نفس المكان وفى إحدى المرات سقط منه دون أن يتمكن من إمساكه فأصبح غاضباً وأصدر أوامره إلى الفرقة الموسيقية بإرتفاع الموسيقى .

لاحظت أن الأولاد الصغار يسيرون خلف الجوقة الموسيقية وعند نهاية الطريق أبصرتهم صغاراً مثلى فسارعت باللحاق بهم وعند مرورنا بالمكتبة كانت كما رأيتها تماماً من فوق كتفى (جوزيف) .. شاهدت أيضاً المحال التجارية وبعض المبانى وكثيراً من النقوش المكتوبة مثل : « ستوديو أكينز .. بورتريه لندن » كانت الصور معلقة على جانبى الباب بينما يجلس المصور فوق مقعد خارج الاستوديو واضعاً قدمه اليمنى فوق اليسرى معلقاً الوشاح فوق رقبته وهو يدخن البايب وحين أمعنت النظر فى المصور عرفته على الفور فقد جاء إلى منزلنا يوم مولد (ديبو) لإلتقاط بعض الصور ولم يكن قد خطر ببالى أن أولئك المصورين يملكون ستوديوهات خاصة بهم وإنما يعملون بالتصوير في المنازل فقط .

أبصرت كلمات محفورة فوق حائط من الأحجار تقول : « عيادة السيدة ماكتر للأطفال » .. إنها السيدة البيضاء ذات القلنسوة المنشاة والتى كانت تزورنا أحياناً فى البيت حاملة حقيبتها المربعة وكنا نعرفها بالسيدة (ماكوتا) .. تمنيت لو أراها مع زائر أو مريض لكننى خشيت ألا أتمكن من اللحاق بالفرقة الموسيقية .

شاهدنا كثيراً من المنازل التى كانت تشبه الكنيسة والنصب التذكارى ولقد تعجبت مرة أو مرتين لإبتعادى عن المنزل ولم أكن أعرف سبباً لذلك الخوف الذى تملكنى فى كل خطوة .

بعد خطوات من عيادة السيدة (ماكتر) كنا قد وصلنا إلى قسم البوليس وتخيلت أن الفرقة سوف تتوقف لكنهم دون أن ينظروا بإتجاه القسم واصلوا سيرهم .. علا صوت النفير وتلألأت الأبواق فى الشمس وعند أول تقاطع الطريق وصلنا إلى لافتة تقول : «السيدة ت . بانچوكو - أستاذة الحياكة - لندن» وعند نفس التقاطع كانت لافتات أخرى تقول : «إلى لافينوا» ، «إلى إجبين» ، « إلى إيبارا» .. إتجه الموكب نحو« إيبارا » وعند المدخل كان السوق حيث تنتظر النساء على طول الطريق وأكوام من البضائع المصطفة فوق العربات .. حدثتنى نفسى : إن العالم ملئ بأشياء كثيرة !!

كنت قد تأخرت فى السوق حين تخللت أنفى رائحة البطاطا ورأيت الخضروات والسمك المجفف وجراد البحر واللحوم فوق الطاولة ولولا أصوات الفرقة الموسيقية لما استطعت اللحاق بهم .. كان القصاب ماهراً فى عمله مثل رجل البوليس الذى كان يرمى بالصولجان إلى أعلى ويمسكه بيده وكان يبدو فى كل لحظة وكأنه سيقطع أصابعه لكن السكين كانت تنغرز بين أصابعه فوق الطاولة لتقطع اللحم إلى قطع صغيرة متساوية .

وبعد قليل كان قسم الملابس وأدوات الحياكة ولعب الأطفال وأيضاً حوامل الكتب والأقلام الصغيرة والمطاط والحبر والكراسات ثم توقفت فجأة حين رأيت رأس حيوان محنطة كانت متدلية من رف خشبى وجمجمة بيضاء بدون

جلد أو لحم وذات تجاويف وثقوب كبيرة فارغة فى الأنف ثم ورق الشجر المجفف وكان قسم آخر يحتوى على مجموعة من الأحجار والعقود وقطع من الحديد والبودرة الملونة فى أكوام صغيرة وثمة زجاجات مملوءة بسوائل غريبة وزجاجات أخرى كان من الممكن رؤية أوراق الشجر بداخلها عرفت أنها مثل التى كان يحضرها أبى وكنا نستخدمها كعلاج حين يشعر أحدنا بالمرض .

كانت أيضاً الثعابين والفئران المحنطة وكان زبائن هذا القسم من النساء العجائز اللاتى كن يجلسن دون خوف حتى أنهن لم يتأثرن بموسيقى الفرقة التى إهتز لها الجميع .

كانت لافتة أخرى تقول : «مدرسة أبيكوتا» فتذكرت (رانسوم كوتى) الذى يعيش مثل أبى فى إرسالية المدرسة .. كان (كوتى) رئيساً وحاولت أن أستعيد ما قاله أبى عن الفرق بين الرئيس والناظر ولم يهمنى شئ سوى أننى كنت متأكداً من ذهابى إلى هذه المدرسة بعد إنتهائى من مدرسة القديس بطرس وبمحاذاة الأسوار الحجرية للإرسالية لم أر سبباً لانتظارى .. كان مبنى الإرسالية الرئيسى والطريق الواسع النظيف بإتجاه ذلك المنزل الحجرى ذى الأعمدة المنحنية محاطاً بأشجار «اليوجينفيلايا» مثل فناء الأساقفة فى بيت القس لكنه كان أكثر تأثيراً فى النفس .. وضعت وجهى بين حديد البوابة قائلاً : لماذا لا أدخل الآن وأبدأ تعليمى ؟ .. ثم تذكرت أنه يوم السبت حيث أجازة المدرسة وعندئذ قلت لنفسى : على أية حال فإن يوم الإثنين مختلف وسوف أعود دون صعوبة بعد أن عرفت الطريق .

عندما لحقت بالموكب إعتقدت أننى فهمت الفرق بين الرئيس والناظر .. إن

الرئيس هو من يرأس المدرسة ويشرف عليها مثل الرجل الذى لم يمنعنى من الحصول على مكان يوم أن تسللت خلف أختى (تينى) خاصة وأننى إبن الناظر .. إن الرئيس على أية حال ضيف دائم فى منزلنا وتدعوه أمى بالعم وكنا نملك الشجاعة لمناداته بالمثل غير أننى كنت أفضل إسم (داودو) الذى يلائم مظهر الرجل وصوته العميق وإشاراته المليئة بالطاقة والحركة .. كان يركب دراجة لم يحدث أن رأيتها من قبل وذات يوم إلى جوارنا فى (آكيه) وقع من الدراجة وارتطم بالأرض بينما كنا نطلق الصفير من فوق السور فجاءوا به إلى منزلنا وراحت أمى تغلى الماء وتعد الضمادات والقطن ثم جاءت الممرضة التى دخلت الحجرة وقالت لأبى : يجب أن يذهب إلى المستشفى فالجرح فى فخذه كبير .

سمعت أبى يتمتم بكلام عن الآلة التى وقعت عليه وأصابته بذلك الضرر وبعد خروج (داودو) من المستشفى إشترى سيارة ولم يعد يستخدم الدراجة أبداً .

كان (كوى) إبنه الأول وكنت أنا و(تينى) ندعوه بالعم (كوى) لأنه كان أكبر منا بكثير وبعد تلك الحادثة كان يداوم على زيارتنا فى المنزل ثم عرفنا أن سيارة (داودو) هى السيارة الثالثة فقط فى كل المدينة إذ أن (آلاك) نفسه كان يملك واحدة وكانت الثانية للرئيس الغنى الذى يعيش فى (أوتوكو) حتى أن ضابط المنطقة الإنجليزى لم يكن يملك سيارة .. كان يقود موتوسيكلاً أو يتنقل على ظهر حصان .

شعرت بالتعب وفكرت بالجلوس إلى جانب الطريق لأنعم بقسط من الراحة

.. أصدر الشاويش أمراً بدخول الفرقة الموسيقية إلى الإرسالية وفجأة توقفت الموسيقى ودقات الطبول وصليل الصنح الصاخب .

إكتشفت عندئذ أننى وحيد تماماً .. إختفت مجموعة الأطفال التى كانت تتبع الفرقة وتقلدها وتوقف صدور الأوامر ولم أعد أبصر أحداً أو أسمع صوتاً .. كانوا جميعاً قد إختفوا وبقيت وحدى ثم أدركت عن يقين بأننى لم أكن أعرف أين أكون .. أدركت فعلاً أننى لا أعرف !! .

كان الشاويش يعدل من كعب حذائه حين تحدث بلغة غريبة إلى شخص ما كان مختفياً خلف المبنى وعند خروجه رأيته يرتدى زياً أنيقاً وكان أول ما شد إنتباهى أنه رجل أبيض البشرة والشعر وله مشية تشبه مشية رجال البوليس .. كان يرتدى حذاء من الكاوتش وزياً كاكى اللون ثم عرفت أيضاً أنه رجل بوليس .. وقف بخطوات جامدة واستدعى أحد أفراد الفرقة الموسيقية بينما كان الشاويش يصدر الأوامر إستطعت أن ألتقط منها بعض الكلمات الإنجليزية القليلة .. تفرق العرض وذهبوا كل فى طريق ماعدا الشاويش الذى بقى مع الضابط الأبيض يتبادلان الحديث حتى شاهدانى .

كنت فى الحقيقة أحس بتعب شديد وعندما شاهدنى ذلك الرجل الأبيض وراح يتملقنى إنتابتنى فكرة الهرب ..

أشار نحوى وقال شيئاً للشاويش فتلاشت فكرة الهرب إذ لم يكن بإستطاعتى أن أفعل ذلك بالإضافة إلى عدم معرفتى أى الإتجاهات التى يمكننى الهرب نحوها .. تطلع الشاويش أيضاً نحوى وراح يمشى ناحيتى

وعندئذ كان من المحتمل أن أجرى رغم إحساسى الشديد بالتعب .

قلت لنفسى : يجب أن أجرى .. هاهو الرجل قادم .

لكن الضابط الأبيض أوقفه وتقدم هو بنفسه ودون أن أدرى وجدت نفسى أعود إلى البوابة فابتسم الرجل ورفع كلتا يديه بإشارة تعنى أننى لم أفهم وعندما إقترب منى وأصبح أمامى مباشرة إنحنى إلى أسفل وسألنى بلهجة لم أسمعها من قبل : Kini O Fe nivi yen ?*

عرفت الكلمات التى هى لغتى الخاصة لكن طريقة نطقه بها جعلتنى لا أحسها فنظرت إلى الشاويش مناشداً إياه المساعدة ثم قلت : أنا لا أفهم .. ماذا يقول ؟

تلألأت عيون الضابط بوميض غريب وقال : أوه .. أنت تتحدث الإنجليزية!!

أومأت برأسى قائلاً : نعم

• حسناً .. كنت أسألك عما تريد وهل يمكننى مساعدتك ؟

• أريد الذهاب إلى المنزل .

تبادل النظرات مع الشاويش وقال : نعم .. نعم .. وأين المنزل ؟

لم أستطع أن أفهم السبب فى أن ذلك الضابط كان يتحدث من أنفه مما

---

* أخبرنى بالحرف الواحد .. ماذا تريد ؟

جعلنى أفهمه بصعوبة وكنت فقط أخمن ما يقول .

قلت له : أنا أعيش فى (آكية) .

ثم أضفت : توجد فى (آكية) كنيسة كبيرة خارج الأسوار .

قال ولم يزل يتحدث من أنفه : آهـ .. آهـ .. بالقرب من الكنيسة .. نعم .. وما إسمك إذن ؟

كانت الطريقة التى نطق بها سؤاله عن إسمى أكثر غموضاً لكننى إستطعت أن أفهم السؤال .

وأجبت : إسمى (وول)

- (وونلى) (هكذا نطق إسمى) .. حسناً .. وما إسم والدك ؟
- الناظر
- ماذا ؟
- الناظر .. هذا هو إسم أبى وأحياناً يكون إسمه إسحق .

ظل يضحك ولم أعرف سبباً واحداً فى إسم أبى يبعث على ذلك الضحك أما الشاويش فقد خرجت عيناه تقريباً من رأسه وإكتسى وجهه بملامح غريبة تختلف تماماً عن الرجال الذين نقابلهم فى (آكية) وعندما تكلم كان صوته يشبه التجار الذين يحضرون البضائع إلى منزلنا ويبادلونها بالملابس القديمة .. كانوا ذوى أشكال نحاسية .. كانت الجياد والإبل والأطباق والصوانى والسلاطين وأيضاً الزخارف والحلى .. كانت الحقائب والشباشب التى

يحملونها تملأ المنزل برائحة الجلد الطازج والشئ الذى لم أستطع نسيانه أبداً هو تلك الزجاجات من العطر ذات الأسماء الأجنبية وبعض زجاجات أخرى كانوا يلصقون عليها ورقة مكتوب عليها : (السودان) وتحتها صورة لمحارب يرتدى عمامة وإلى جواره جمل راكع وفتاة عذراء تقدم له باقة من الزهور..

.. لم يكن فى بستان الفاكهة مايشبه تلك الزهور فقال إسحق : إنهم يدعونها بلح (dates) لم أصدق إسحق لأننى أعرف أن dates هى تلك الأشكال والأرقام التى نراها فوق نتيجة الحائط فاعتبرت ذلك مزاحاً منه .

كانت أصوات التجار جميعاً متشابهة وهم ينادون على بضائعهم وهكذا كان صوت الشاويش الذى سألنى : هل أنت إبن ناظر (آكية) ؟ وماذا تفعل هنا إذن ؟

ظل الشاويش والضابط الأبيض ينظران نحوى ولم أجد إجابة على السؤال حتى سألنى الرجل الأبيض : هل أنت تائه ؟

قلت : كنت أسير خلف الفرقه الموسيقية .

أومأ الضابط برأسه وقال للشاويش أن يأتى بدراجته .. قدم الشاويش التحية ومضى لكن شيئاً ما كان يدور بذهن الضابط الذى وضع يديه فوق كتفى وقادنى إلى المكتب ..

كم عمرك ؟

• أربع سنوات ونصف .

صاح مندهشاً : ماذا ؟

ثم صمت لحظة وعاود النظر إلى وجهى قائلاً : هل أنت متأكد ؟

هززت رأسى بالإيجاب .

إقترب منى أكثر وقال : نعم .. طبعاً .. طبعاً وقد مشيت من (آكية) .. من أى نقطة بدأت ؟

قلت : من النصب التذكارى وكان معى أطفال آخرون لكنهم تركونى .

عند وصولنا إلى المكتب رفعنى بيديه ووضعنى فوق الكرسى وسألنى : هل أنت عطشان ؟ ثم تناول زجاجة من عصير البرتقال ووضع عليها بعض الماء الموجود فوق الطاولة فشربت حتى آخر قطرة ..

سألنى مرة أخرى : هل تريد كوباً آخر ؟

وقبل أن أجيب كان قد صنع كوباً آخر من عصير البرتقال بالماء وناولنى

إياه فسارعت بشرابه كاملاً كما فعلت مع الكوب الأول .. شعرت بتحسن شديد ورحت لأول مرة أتجول بنظراتى فى المكتب .. مددت قدمى وأثارت دهشتى تلك الأوراق فوق المكتب وكنت أعرف هذه الجريدة التى كانت تأتى لأبى كل إسبوع .

نظرت إلى الرجل بإهتمام كبير وقلت له : أنت تقرأ جريدة أبى .

قال بفزع : أية جريدة ؟

أشرت إليها قائلاً : هذه .. هل تقرأها فى وقت الفراغ ؟

- حقاً .. هل قلت أنها جريدة أبيك ؟
- نعم .. إنه يملك واحدة جديدة كل إسبوع .

فتح الجريدة بسرعة ونظر إلى شئ ما بين الصفحات وقال : هل تعنى أن أباك هو رئيس التحرير ؟

لم أستطع أن أفهم فكررت : إنه يحصل عليها كل إسبوع .

وعندئذ كشر الرجل بوجهه وأومأ برأسه : أعرف .. أعرف .

كان النعاس يغالبنى حين جاء الشاويش بد راجته وعند مفترق الطرق فى طريق عودتى إلى المنزل أحسست بالشجاعة .. إستلقيت فوق سرير أمى بحجرة النوم حيث تنتشر رائحة ori* والكافور ولم أعد أتذكر أى شئ .

---

* ori : رائحة الزبدة (المترجم)

إستيقظت بعد قليل وعرفت أين أكون وشعرت أن معدتى تتلوى من الجوع فقفزت من السرير إلى المطبخ وعندما فتحت الباب فوجئت بكثير من الناس وكانت الحجرة الداخلية الأمامية مزدحمه بالكبار الذين يتبادلون الحديث بإهتمام .. توقفوا فجأة وساد السكون عندما دخلت ثم تطلعوا جميعاً نحوى وسألت نفسى : ماذا يحدث ؟ .. لماذا كل أولئك الناس ؟

وفى ظل ذلك السكون قلت : إننى جائع .

كان كل ما يدور فى ذهنى أننى جائع .. ذلك كل ما فى الأمر .

أصابتهم الدهشة وفتحوا أفواهم عن آخرها ثم أعلنت زوجة بائع الكتب وهى تضرب قبضتها بالأخرى فى دهشة : هل تسمعون .. إنه جائع !!

تبادلوا اللغو والهمهمات ولم أفهم السبب فى أن جوعى يبعث على كل ذلك الإهتمام والإثارة .

كان الوقت مساء ولم أكن قد تذ وقت الطعام منذ الصباح ..

قال أبى مبتسماً : حسناً .. إنه لمن الطبيعى أن يكون جائعاً بعد أن مشى من (آكية) إلى (إيبارا) .. أليس كذلك يا (وول) ؟

إرتميت بين أحضان زوجة بائع الكتب التى صاحت فى وجه أمى : أحضرى الطعام لطفلى .. أوه .. ماما لماذا تتركينه جائعاً ؟ .. قالوا لك بأنه جائع ولم تقفزى على الفور لتأتيه بالطعام .. سوف يأتى معى إلى منزلنا

وأقدم له الطعام .

قبل أن أفهم ما يحدث رفعتنى إلى ظهرها وهى تتناول عباءتها ثم راحت تغنى وترقص وفجأة أصبحوا جميعاً يغنون معها بأعلى أصواتهم .

... كانوا يغنون ويضحكون لكن شخصاً واحداً كان يجلس فوق مقعده دون أن يتحرك أو يغنى .. إنها أمى التى كانت جالسة وذقنها فوق قبضة يدها دون أن تفعل شيئاً سوى التحد يق فى وجهى وهى تهز رأسها من وقت لآخر متنهدة.

قالت زوجة بائع الكتب لأبى : إنظر لها .. كانت تتمنى لو إلتهمته حيوانات (أبيكوتا) المفترسة .. ها آ آ م .. إعطنى العصا من فضلك .

ضحك أبى وقال : فكرة طيبة ..

تناول العصا من مكانها بجوار مقعده فى الركن وأعطاها لزوجة بائع الكتب فسارعت أمى بالجرى فى الردهة .

كانوا جميعاً يتمتعون بروح عالية وكان غريباً بالنسبة لى أن أرى الرجال والنساء يقفزون و يمرحون فى المنزل مثل الصبية الصغار .

من فوق ظهر زوجة بائع الكتب شعرت مرة ثانية بالنوم فلم أعرف متى سأتناول طعامى ..

إستيقظت فى صباح اليوم التالى من فوق سريرها مبتهجاً لا أعانى أية

متاعب وجلسنا إلى مائدة الإفطار الكبيرة وأبداً لم أستطع أن أتذكرشيئاً مما حدث بالأمس .. ربما كان حلماً لكنه كان مختلفاً عما حدث لى من قبل .

(٤)

ـ جاهدت فى إختطاف الأسفنجة من يد (نوبى) التى كانت تعاود رش الماء فوق جسدى وتدلكنى باللوف الخشن والصابون .. قاومتها فى البداية ودفعت يدها بعيداً عنى مرة إثر أخرى ورغم محاولاتى الجادة فى إبعادها عنى إلا أنها لم تفعل وظلت ترش الماء .

قلت لنفسى : آهـ لو أنها جوزيف !!

كانت عيناى غارقتين بالصابون فقمت بإزالته من فوق عين واحدة أبصرت بها (نوبى) واقفة ورائى تنظر نحوى بإستياء وتقول : هل ستساعدنى فى تنظيفك أم لا ؟

قلت : ولكن دعينى أغسل وجهى بنفسى .

ضحكت بسخرية وقالت : أنت .. ها .. نعم .. فلتضع يدك إذن فوق رأسك .

فعلت ماطلبت منى فقد كان واضحاً أنه نوع من الاختبار إذا ما نجحت فيه فسوف تتركنى أغسل وجهى .

وضعت ذراعى فوق قمة رأسى محاولاً قدر إستطاعتى أن أفعل مثلها .. كانت أصابعها تداعب حلمة أذنها اليسرى ثم أخفت الأذن تماماً بقبضة يدها وقالت : والأن هل ترى الفرق ؟

• وهل لا أفعل مثلما تفعلين ؟

ضحكت بسخرية أكثر : ألا تلاحظ أى فرق ؟

• ما الخطأ فيما أفعل ؟

• أنا لا أتحدث عن الخطأ الذى تفعله وإنما عن الذى لا تفعله أبداً .. إنظر إلى يدى .. إنهــا تصل إلى رأسى وتغطى هذه الأذن بكاملهــا .. هل ترى؟.. والآن إنظر إلى يدك التى لا تصل إلى قمة رأسك .. هذا الفرق ضرورى لمساعدتك فى حمامك أم أنك تعتقد بأنك صرت ولداً كبيراً لأنهم سمحوا لك بالذهاب إلى المدرسة .. هنا فى المنزل مازال الكثير لتتعلمه إذ أن المدرسة لا تستطيع أن تعلمك كل شئ .

تقدمتنى وهى تمسك بالأسفنجة فى يدها وتقول : والآن .. تعال

ناديت على جوزيف بصوت عال وقلت بإصرار : جوزيف .. دعنى أغسل وجهى.

قالت : أخبرتنى ماما أن أقوم أنا بحمامك .. هذا كل ما أعرفه .

وضعت الكوز بيدها اليسرى فى الدلو ثم جرفت الماء واتجهت ناحية رأسى وظللت أنحرف برأسى بعيداً عن الماء .

• إنظر إلى ما تفعل .. أنت تبدد الماء .. هل تعرف ما ستفعله ماما إذا قلت لها ؟

تحركت نحو ركن الحمام وأدركت بعد فوات الأوان بأنني واقع فى مصيدة ورحت أجاهد من أجل حياتي .. كان الكوز بما يحتوى من الماء يطارد رأسى وحاولت إبعاده عنى وأنا أتصارع مع (نوبى) فابتلت بالماء مما أثار غضبها فقالت : أترى ما فعلت .. إن الرطوبة ستصيبنى وتكون سبباً فى إصابتى بالبرد .

أمسكت برأسى بقوة وهى تدلك وجهى ولم أستطع هذه المرة أن أتخلص منها وعندما حاولت أن أعضها وضعت الإسفنجة فى فمى وعندئذ كررت محاولاتى اليائسة ولم أجد بديلاً عن ضربها برأسى فى معدتها .

سمعتها تصرخ : O pa mi o*(1)

ثم سمعت صرخات أخرى : Tami yen ?*(2)

ظل الجميع يجرى فى المنزل فى حالة من الفزع مرددين : من هو القاتل؟

مسحت بيدى الصابون بسرعة وكانت ماما هى أول ما رأيت .. كانت تجرى عبر الباب المفترح وتهز رأسها من جانب إلى آخر فى حيرة معتادة لكنها كانت أكثر إرتباكاً .

قلت لها خائفاً : لقد إنتهيت من حمامى .

---

* (1) O pa mi o : القاتل

* (2) Tani yen : مَنْ يكون

ضربتنى برأسها : لكن (نوبى) تشكو منك لأنك ضربتها برأسك فى معدتها وكفاك كذباً .

• نعم ياماما لكن شيئاً لم يحدث لها وقامت على الفور

• وذلك الصراخ الذى إنتشر فى أرجاء المنزل .. ماذا تريد أيها الولد .. هل ترغب فى إثارة الرعب والفزع لدى الجميع ؟

قالت (نوبى) : لا .. ماما .. إنه فقط لم يتركنى أنظف وجهه .

قلت بنبرة تحدٍ : بل قمتِ بتنظيفه ولم تفعلى شيئاً سوى ذلك .

كانت (تينى) ما تزال فى إنتظار حمامها حين بدت على وجه أمى تلك المسيحية المتوحشة إبتسامة رقيقة جعلتنى أشعر بالطمأنينة .

قالت لنوبى : حسناً .. إستدعى (تينى) وعلى أية حال فإنهما سيكبران عما قريب ولن يحتاجا لأى مساعدة فى الحمام .

إنتهزت الفرصة قائلاً : نعم .. نعم .. لست فى حاجة لمساعدتها أو مساعدة جوزيف .

• ولكن يجب أن تستحم أمامهم حتى يتأكدوا من أنك تفعل الصواب .

أومأت برأسى : إنه شئ بسيط للغاية وأستطيع بمفردى دون مساعدة أو وجود أحد .

ثم أضفت : أنا حقاً لا أحتاج لأحد فذات مرة قمت بتدليك جسدى حين كان جوزيف مشغولاً وعندما شاهدنى بعد ذلك قال بأننى نظيف جداً .

إستطردت ماما : أوه .. جميل لكننى لا أفهم خوفك هذا من الماء وأنت الذى وُلِدت فى يوليو .

قلت معترضاً : كنت أزيل بقية الصابون ولم أكن خائفا من الماء .

• لا .. ليس كما تزعم .. إن الصابون مازال عالقاً فى أجزاء كثيرة من وجهك ولم يلمسه الماء بعد .

ملأت الكوز بالماء وبسرعة رحت أصب الماء فوق رأسى وكنت أقاوم لسعة الماء فى وجهى وأتنفس بصعوبة .

قالت أمى لأبى فى جلسة الإفطار : أنا لا أعرف ماذا يفعل إبنك هذا بالماء .. إنه لا يحسن إستخدام الماء .. هل تعرف ما حدث هذا الصباح ؟

كانوا عادة يتحدثون وكأننى غير موجود وكانت هذه إحدى عاداتهم الغريبة و هكذا كان كل الكبار الذين يتناقشون وكأن الصغار غير موجودين .

وكنت أهز رأسى مستنكراً فقد كانوا يفتقدون ما نحس به نحن الصغار

قال إسحق وقد لاحظنى : أوه .. إن (وول) يهز رأسه .

ضحكت أمى وقالت : هل تتكر ماحدث حين كنت تصب الماء بنفسك فوق

رأسك ؟

• لا .. ولكننى لا أخاف الماء لأننى أحب الخروج أثناء المطر .

قذفت بملعقتى فى الإناء فتناثر الطعام وقالت أمى تحذرنى : إنتبه أيها السيد المحامى .. لا تبدد طعامك .

• لن أكون محامياً .. سوف أتزوج الأنسة (أودفوا) وسوف أصبح قساً .

• أوه .. الأنسة (أودفوا) .. ماذا حدث للعمة (بوزير) ؟

شرحت قائلاً : لم تأت لزيارتنا وكانت الآنسة (أودفوا) تقضى وقت فراغها معنا .. إنها لطيفة جداً .

كان إسحق يتأمل ويفكر ثم قال : نعم .. قد لا تخاف المطر لكن ذلك لا يعنى أنك لا تخاف الماء .

كانت أمى تلاحقنا بنظراتها وهى تعد نفسها للذهاب إلى الدكان حين قالت : أوه !! فقد كانت تعرف أن الجدل سيستمر وقتاً طويلاً ومن الأفضل لها أن تغادر .

قلت لأبى مستفسراً : أليس المطر هو الماء ؟

• إن المطر يعنى الماء لكن الماء لا يعنى بالضرورة المطر .

أومأت أمى برأسها فى وقار ممتزج بالدهشة ثم تناولت الشنطة من حجرة نومها .

قلت بإصرار : لكن الأمطار لا يمكن أن تكون بغير مياه .

أومأ أبى برأسه : حقاً .. ولكن يمكن أن يوجد الماء بدون أمطار .

• كان الماء فى البدء يأتى من الأمطار .. أليس كذلك ؟

• آهٍ .. أنت مخطئ .. إن الماء هو الذى يسبب الأمطار .

وعندئذ تذكرت الكتاب المقدس .. ماذا يقول الكتاب المقدس ؟ .. ألم يخلق الله كلاهما منفصلاً عن الآخر ؟

قال إسحق : وهو كذلك .. دعنا نرى .. اذهب واحضر الكتاب المقدس من الصالة .

تسلقت الكرسى وكنت شغوفاً لمعرفة ما يقوله الكتاب فقد كان الجزء الذى تعلمناه فى سفر التكوين وكنا نحفظه عن ظهر قلب لا يشتمل على ما يفيدنا فى هذا الموضوع .

عدت إلى حجرة الطعام ومعى الكتاب الذى ناولته لأبى ثم رجعت إلى المائدة وجلست إلى جواره فوق مقعد أمى .. كان طعامى قد نفد وأبصرت طبقاً آخر ما زال يحتوى على الطعام .

إبتسم أبى دافعاً الطبق ناحيتى وقال : ستجد أن الكتاب المقدس يتحدث عن جزء واحد من القصة فقط .. خلق الله الماء والأمطار وجعلهم بطرق خاصة يتفاعلان مع بعضهما البعض وهذا ما ندعوه بقوانين الطبيعة .

كان ذلك الكلام تعقيداً للأمر لا مبرر له فرحت أمتص الهواء من شفتى كما لو أننى أقضمه مثل *ataro do الأخضر الطازج وفجأة تذكرت وقلت : وإذن .. فلماذا تقوم المدينة كلها بالصلاة عند سقوط المطر ؟ أفلا يعنى ذلك أن الله يخلق الأمطار وقتما يحب ؟

تأملنى إسحق فى هدوء وقال : تذكر بأن الله بعد أن يخلق الأشياء على الأرض ويحدد قوانين العمل الخاصة بها يستطيع كخالق أن يتدخل ويعيد ترتيب الأمور كما أنه يستطيع فى الحال الإسراع بعمليات الخلق أو الإبطاء فيها .

خرجت المسيحية المتوحشة من حجرة نومها حاملة الحقيبة لتودعنا وتذهب إلى الدكان وكانت قد سمعت ما قاله إسحق ثم إقتربت وهى تهز رأسها وتتعجب كعادتها دائماً لقدرة إسحق على الصبر غير المحدود . وقالت له : ولكن ياعزيزى هل أنت متأكد بأنه قادر على فهم كل هذا الجدل الذى تثقل به عقله الصغير ؟

بدا لى أن المناقشة ستكون أكثر إثارة بعد مغادرة أمى ولم أكن أعرف أن مناقشة مثل هذه الأمور تبعث اليقظة فى نفس إسحق وتجعل لسانه يرقص .

* ataro do : فلفل رومى طازج (المترجم) .

سحبتنى أمى من فوق الكرسى وقالت : إحمل هذه .

أعطتنى حقيبة وأدركت على الفور ما تعنى .. إنه يوم السبث حيث أجازة المدرسة وهذا يعنى أن أشارك بالعمل فى الدكان .

قلت بإحتجاج : عندى واجب لابد أن أنتـهى منه .

قالت وكأنها لم تسمعنى : هات الواجب معك إلى الدكان .

وضـعت الحقيبة على الأرض واختفيت بين كتبى فقالت لأبى : لايجب أن تشجعه كثيراً ياعزيزى .. إنه مشاكس عنيد .. أتعرف ماقاله لخادم الكنيسة يوم الأحد الماضى أثناء صلاة مابعد الظهر ؟ .. كان يثرثر مع صديقه الجديد إبن (إيدون) وعندئذ زجرهما خادم الكنيسة .. هل تعرف بماذا أجاب إبنك ؟

- ماذا قال ؟

- كانت الكنيسة كعادتها فى أيام الآحاد مزدحمة وكانوا ينشدون التـراتيل ويؤدون الصـلاة حين أجـاب إبنك أمـام الجـميـع بأنه لم يكن يتكلم أو يثرثر وأن على الخادم إثبات ذلك .. هل تـتخيل ؟ على خادم الكنيسة أن يثبت ذلك !! .. هذا هو إبنك .. أى نوع من الأطفال يكون هذا الولد ؟

توقفت خلف الباب مرتعشا .. إهتم إسحق بأمر المتاعب التى أسببها فى الكنسية أو مدرسة الأحد وقال للمسيحية المتوحشة بأنه كان - آجلاً أو عاجلاً - سيعرف .

ظللت بلا حراك مثبتاً عينى فى فتحة الباب وأنا أستمع .. كان يقول : حسناً .. آهـ .. إنه لشئ صعب أن يقوم خادم الكنيسة بإثبات ذلك .

تنهدت أمى : أعرف .. أعرف .. أنت دائماً تدافع عنه عندما نتحدث بشأنه ولست أعرف لماذا أضايق نفسى بالقول لك .. ها هو قد إختفى من أمامك .. أين هو ؟ .. وهل أخذ الحقيبة معه ؟

• ها هى فوق مقعدك .

د فعت بالخاد مة أمامها وقالت : دعينا نذهب .. سوف أتركه ليضايقك بأسئلته الصعبة فهو أيضاً يضايقنى فى الدكان بأسئلته الحمقاء مثل : لماذا بطنك أكبر من بطن بابا ؟ .. هل أنت حبلى ؟ وأشياء أخرى لا أخبرك بها .

ضحك أبى ملء فمه : حقاً .. متى كان ذلك ؟

• إسأله هو .. إنه إبنك .. دعنى أذهب فالزبائن فى إنتظارى .

دفعت الخادمة بقوة وخرجت من المنزل بينما بقيت فى مكانى فلم تكن ضحكات إسحق تعنى عدم توبيخى .. ظل فوق مقعده ومن شرخ صغير بالباب كنت أرى جزءاً صغيراً من ظهره .. كان يسترق السمع لخطواتى وهو جالس فى مكانه ممسكاً بفرشاة الأسنان .. تسمرت فى الأرض وكنت أتنفس بصعوبة وأتوجه بدعائى إلى الله وكان قدوم أى شخص لزيارتنا هو الشئ الوحيد الذى ينقذنى .

أصابنى السعال فأعلنت عن وجودى وقال أبى : (وول) !

• نعم سيدى ..

وفى نفس اللحظة سمعت أصواتا ثقيلة بالخارج فوق الرصيف .. كان صوت أمى مع صوت آخر .

دخلت أمى وقالت لأبى : أما زلت بالمنزل يا عزيزى ؟

• نعم .. مازلت هنا .

نظرت إلى الخارج وقالت : إدخل .. إدخل .. تفضل بالجلوس .. سوف أستدعيه للقائك . كنت أضغط نفسى خلف الباب وكان حضور شخص ما هو ما صليت من أجله ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى ألاحظ فيها أن الله له عادة غريبة فى ألا يستجيب لصلوات الإنسان أبداً أو يستجيب لها بطريقة غير مباشرة .. يا له من إله طيب ..

قالت أمى : قابلت السيد (أد يزينا) بالطريق وسألنى عن إمكانية أن يلقاك هذا المساء فرأيت أنه من الأفضل أن يقابلك الآن .. هل هذا حسن ؟

أجاب أبى : هل جاء بخصوص الوظيفة مع (ساينود) ؟

• وهل هناك شئ آخر يفكر فيه ؟ إنه يأتى إلى الدكان ويزعجنى فأقول له أن يلقاك .. هل أجعله يدخل ؟

• لماذا أحضرته ؟

• أنا لم أتوسل إليه كما أنه لم يشأ أن يأخذ نقوداً .. أخبره أنت ياعزيزى فلقد قلت له مئات المرات لكنه لم يقتنع .. أخبره أنت بنفسك .

توجهوا نحو الحجرة الأمامية وفى غفلة منهم تسللت إلى حجرة الطعام وتوقفت أمام طبق إسحق ثم ضربت كسرة الخبز فيه ووضعتها فى فمى واتجهت إلى حوض الغسيل الواقع على يسار الحائط فى مواجهة حجرة الطعام لأمسح شفتى وفجأة تلقيت ضربة قوية فى جانب رأسى وصوت يقول: رائع .. شئ رائع .

كانت تقف فوقى متأججةحين إستطردت : كنا نعتقد أنك تخليت عن هذه العادة.

كانت المسيحية المتوحشة تملك موهبة عظيمة فى الظهور من حيث لا تدرى وكأنها كانت تجيئ من تحت الأرض .

- كان (اديزينا) قد فقد وظيفته مع (ساينود) وعرفت أنه لن يعود .. غادر المنزل مثل كثيرين قبله باكياً ومتأثراً وكانت عيناه وهو ينظر إلى أمى تلتمسان الرجاء الأخير .

قالت للرجل : أنت تعرف طبعاً أنه قرار الناظر ولا أستطيع أن أجعله يتصرف بما يتنافى مع ضميره .

(٥)

ـ تساقطت أوراق شجرة « الباوباب » التى كنت أظنها حصناً أزلياً مع مرور الوقت ولم يبق منها سوى بعض الفروع القليلة التى كانت تنشر ظلالها المتفرقة لكن المسافة بين المنزل والكنيسة كانت ما تزال مفروشة بأشجار المانجو وكانت شجرة « الأوميجى » فى فناء الكنيسة والنصب التذكارى خارج أسوار الكنيسة مازالا قائمين .

كان برج الكنيسة بأسطحه الصدئة من كل الجوانب موازياً للطريق المنحدر بإتجاه « أبيريكودو » ثم « آكية » ، « إيباربا » ، « أتوكو » وأخيراً عبر التل إلى « موكولا » .

قبل « ابيركودو » كان ميدان « هوزا » وكانت خلية النحل بأعشاشها ذات اللون البنى تحيط المنازل وبالسير نحو الحائط والبوابات الواسعة لإصطبل الرئيس وقبل قمة الطريق كانت أسواق « إيبارابا » المتشابهة تبدو مختفية فى جانب التل :

.. إن شيئاً من ذلك لم يتغير .

ـ كانت شجرة « الباوباب » والمنازل المضيئة ، فناء اللعب ، الطرق والممرات وحتى « چونا » هى أكثر الأشياء التى نتعامل معها ونحبها .. كان المدرس ينظر متأملاً عبر شباك مدرسة الأحد ليرى تلك الصخور المتسلقة القريبة وبعيداً عن أنظارنا فى الجانب الآخر من مبنى المدرسة كانت الصخرة

الكبيرة التى ندوس عليها بأقدامنا وكأنها تفرش الأرض وتغطيها .

قال أحد الصغار فى حجرة المدرسة : إن الحوت أكبر من الصخرة .

أومأ آخر برأسه موافقاً : نعم .. إن الحيتان هائلة وضخمة وهى أكبر من المنازل .

- وحتى أكبر من السفن .
- وأكبر من الطائرات .

إمتدت يد أحدهم نحوى بقطعة من الورق فقرأت : إن منزل أبى أكبر من الحوت .

لم أهتم به لكننى أجبت : كذاب .

ولم أسمع إجابته فقد شعر بصدمة كافية .

لكن " چونا " كانت صخرتى الخاصة التى يتحدثون عنها فى مدرسة الأحد .. كانت الأستاذة تتباهى ببعض الأفكار الخاطئة عن الصخرة " چونا " التى أحبها كثيراً وتربطنى بها علاقة سرية خاصة .. أبصرت تعبيراً غامضاً فوق وجه الخادمة فى منزلنا حين ربطت الأستاذة بين " چونا " والكتاب المقدس .

كانت الحكايات حول "چونا " غامضة ومعقدة مثل حكايات الكتاب المقدس

وإختلاط الطين بالجسد العظيم باستخدام مياه المطر التى تتجمع فى شكل كرات بيضاوية كثيرة حتى أننى تساءلت ذات مرة : من الذى يصنع كل هذا ؟

لم تكن تلك الكرات البيضاوية الكثيرة تلامس "چونا ... الجميلة والتى لم تكن هى الصخرة الوحيدة فى الإرسالية .. كانت ثمة صخور أخرى تنمو فوقها أشجار البامبو وكنت أسير من المدرسة إلى منزلنا متسلقاً جوانبها المنحدرة .. كانت صخوراً ناعمة ومائلة إلى أسفل نتزحلق من فوقها ونصرخ لكن " چونا " كانت مكشوفة وعارية من الأشجار .. كانت " چونا " حالة خاصة ومتفردة .

قالت الأستاذة : كانت " چونا " فى بطن الحوت .

لكننى لم أصدق .. كان ذلك القول من نسج الخيال .

- بجوار صنبور المياه كانت شجرة الجوافة المطلة على مربع القس متمددة فوق الأرض كأنها تجلس القرفصاء ليس ببعيد عن مدرسة الأطفال .. كانت تجود بكثير من ثمارها وكان لونها أخضر داكناً وأوراقها ممتلئة ويتدلى أحد فروعها نحو الأرض .. كانت تزدهر فى موسم المطر فقط وعند إنتشار السحب الكثيفة كانت تعلن عن وجودها بين عالم النبات والشجر بانتاجها الوفير كما كانت الرطوبة تملأها بالحياة ولم تكن العصافير تشعر بالأمان مثلماتشعر به فوقها .

- ذات صباح ساد فيه الغسق تسللت خارج المنزل كى أراقب (جوزيف)

أو (نوبى) وهما يسيران بمحاذاة الأحجار التى تحدد الطريق ولم أكن بقادر على رؤية ما بين الفروع .

تم تعميد (نوبى) مثل الآخرين غير المسيحيين الذين جاءوا إلى الإرساليةفأصبحنا نناديها باسمها المسيحى (مارى) .. كانت تمشى فى الطريق الواسع فى إتجاه الفسقية حيث تعرف المكان الذى نلعب فيه ونضرب الحصى فوق الطين أو نتطلع إلى البط .. كانت تسير وهى تمسح جبينها بطرف لفافتها وتنادى على إسمى .. تعثرت طوال الطريق محاولاً اللحاق بها .

نظرت نحوى بإهتمام وقالت : إن ماما سوف تجلدك فقد توقفت الأمطار منذ ساعتين وكنا نعتقد أنك موجود بالمنزل .

* لكننى أخبرت (جوزيف) بأننى ذاهب إلى المدرسة .

* نعم .. لقد قال لها ذلك لكنك تأخرت فى العودة فظلت ماما واقفة فى الركن خائفة من إصابتك بالحمى .

كان مجرد التفكير فى سوط أمى يصيبنى بالإرتعاش .

- كان "إيزارا" هو منزلنا الثانى حيث ولد إسحق الذى جاء أيضاً من أب وأم .. كان المنزل ذا عوارض خشبية محترقة وسقف مكشوفا وسجاد من الوبر وحصير وثمة أشياء فى أركان السقف ملفوفة بأوراق من الجلد ولم يكن من شئ يبعث على الحيرة والإرتباك سوى تلك الحبوب والنشوق التى

يتعاطونها للتأثير على مشاعرهم .

كان "إيزارا" نوعاً مختلفاً من البيوت التى يظهر فيها الزمن من كل أركانه وتعود معه خطوات كثيرة إلى الماضى .. كل ما تقع عليه العين كان يساعد فى معرفة الأجداد بما فى ذلك الصور المعلقة وذلك الوشم الأخضر فوق أيادى وأجساد النساء .

كنا نذهب إلى هناك كل عام جديد لنشوى الخنزير ونستمتع برائحة الدخان المنبعث من الخشب المحترق والتراب الأحمر .. كان السقف من القش وكنا نشرب الخمر المعتقة من البلح ونتناول طعاماً شهياً وكان أبى يدخن من عوارض الخشب كنوع من إزالة النحس وكانت النساء تتدثر بشالات سوداء ذات أشكال مختلفة .

كان النمل ينخر الخشب وفجأة سقط السقف فوق رءوسنا لكن أحداً لم يكن يهتم بذلك النمل المنتشر فى المكان .. كان الصندوق تحت السرير مهجوراً وكانت الأوراق بداخله متآكلة من النمل الذى كان يختبئ فى شقوق السقف والأركان .. كان أبى فى زياراته الليلية يعمل على إصلاح السقف قدر إستطاعته ويتذمر من زيارتنا فى العام الجديد ثم يقوم بإخفاء صناديقه الغامضة حتى إنتهاء الزيارة .. كنت أحس بغيظ شديد لأننى لم أتمكن من معرفة ما تحتويه تلك الصناديق لكننى استطعت أن أصنع بها ثقوباً .

- كان إسحق فى جولات الصيد مثل (چونا) وشجرة الجوافة وأجراس

المنزل ذا شخصية مختلفة يحمل بندقيته دون أن يتحدث أبداً وأنا أسير خلفه متتبعاً إياه وهو يلتقط الطيور التى أطلق النار عليها وكالعادة لم يكن الأمر يخلو من مضايقاتى وأسئلتى الكثيرة .

سمعته ذات يوم ينادى : (وول) .

لكننى قررت ألا أذهب معه للصيد .. إنه يصيبنى بالتوتر وأنا أقتفى أثره .. هرعت إلى الخارج قبل أن يبدأ النداء مرة ثانية وما هى إلا لحظات قليلة حتى كنت راقداً فوق "چونا" وأنا ألهث ناظراً إلى الطريق الذى سيمضى منه فى طريقه للصيد .

قالت أمى لإسحق : إبنك هذا .. هذا الولد لا يتوقف عن فعل الأشياء التى تؤدى إلى موته .

كان ذلك هو إعتقاد أمى الراسخ وأحد أحلام اليقظة والأفكار السوداء التى تنتابها وكانت تنتهز كل فرصة لتخبر إسحق بوضع حد لسخافاتى .

سمعتها تقول له : أخبرتك من قبل ولن أكرر ما قلت .

عرفت القلق فقد كان يبدو أن المسيحية المتوحشة على صواب وكان حادث شجرة الورد الصغيرة هو ما جعلنى أهتم بشكاواها إلى أبى .

كانوا جميعاً يساعدونها وهى تعد الطعام بإحضار الملاعق والفناجين وإذا ما نضج ما فى الإناء فإن فريقاً منهم كان يقدم لها المغرفة للتقليب وحين لا

يجدون شيئاً يكلفونني به كنت أهرب للقراءة في الحجرة الأمامية أو للقيام بواجباتي .. كانت مشاركتي في واجبات المنزل قليلة بالنسبة لما تقوم به (تيني) أو أولاد العم الذين يقيمون معنا .

كانت مشاركتي الخاصة التي إخترتها بنفسي هي الإعتناء بحديقة إسحق فكنت أرش النبات بالماء وأشذب الفروع الميتة وأزيل العنكبوت المتراكم فوق الأنسجة مع الإعتناء بالزهور حتى تصبح في أحسن أشكالها غير أنني كنت قاسياً مع الماعز التي كانت تنجح كثيراً في إختراق الزهور .. كنت أغلق البوابة في وجوه الماعز وألقي عليها الأحجار والهراوات حتى أنني ضربت احداها ذات مرة بشدة فرقدت على الأرض لاهثة وهي تنزف في الطريق الضيق المؤدي إلى البوابة فقد كان الحجر أكبر كثيراً من الذي نستخدمه دائماً .

كانوا جميعاً يغارون من عملي في الحديقة باستثناء أبي الذي تجاوز تلك الغيرة.

ذهب المدرس (أود يجيمي) يوماً ما إلى المدرسة واضعاً وردة قرنفلية في فتحة سترته فتعجب أبي لتلك الوردة ثم سأله بطريقة عادية عن كيفية حصوله عليها .

قال المدرس : أوه . . من حديقتك بالطبع أيها الناظر

قال إسحق دون أن يغير من لهجته : آهـ .. أعتقد أنني أعرفها .. أنت

تحب الزهور كما أرى .

* نعم .. أنا أحب الزهور ياسيدى ويجب أن أتقدم لك بالشكر .. أنت تملك حديقة رائعة لم أر مثلها من قبل .

* وكيف عرفت أننى أملك حديقة ؟

* كنت ماراً بالطريق ياسيدى وكانت البوابة الخلفية مفتوحة فرأيت الزهور الجميلة ولم أصدق عينى .

كنت أنا الذى تركت البوابة الخلفية مفتوحة مما أثار غضب إسحق الذى شدنى من أذنى وحاول أن يرفعنى منها لولا أن تحركت المسيحية المتوحشة بسرعة شديدة وكانت هذه إحدى المرات القليلة فى حياتها التى تتدخل فيها فى قرارات إسحق فى المعاقبة وراحت تفصل أذنى عن يده وتدافع عنى قائلة : عزيزى .. لابد أنه كان يحلم .. أهـ .. أليس هو الذى يقضى كل وقته فى العناية بالحديقة؟ .. إن عقله لم يكن معه .

تنفس إسحق بعمق وبدا هادئاً .. ألقى نظرةأخرى إلى النبات المهشم ثم هز رأسه متحسراً ومضى بعيداً .

تنهدت أمى وقالت لى : عليك بعمل شئ قبل أن تقتل نفسك أو تشعل الحريق فى المنزل .

(٦)

-كنت أرقد فوق الحصيرة متظاهرا بالنوم ثم رحت أبدد وقت الصباح بمراقبة إسحق من النافذة .. كان ملصقاً على الخريطة المثبتة فوق الحائط بالقرب من المرآة بعض الصور لألعاب وتمارين رياضية مختلفة تلك التى يمارسها الرجال ذوو اللون الأبيض .. كان إسحق يفعل ما فى وسعه لتقليد تلك الألعاب وكانت حركاته النشيطة تصدر أصواتاً ما .. ظل يتنفس بعمق وهو ينحنى حتى يلامس إصبع قدمه اليمنى ثم يلف بجسده مرة أخرى إلى أصبع قدمه اليسرى ثم يفتح يده ويقبض عليها ويرفع ذراعه الأيمن ثم الأيسر وكأنه يحمل شيئاً ما .

تبلّل بالعرق ثم تناول الفوطة .. كانت التدريبات قد إنتهت ومن فوق عتبة النافذة أمسك بالفرشاة والكوب فتحركت الفرشاة فى طريقها الصحيح نحو الأسنان التى يدعكها من الداخل فى المقدمة والأركان وهو يبصق فى الكوب بينما كان - من وقت لآخر - يرد على تحية العابرين بجوار النافذة.

شعرت أن ذلك يكلفه جهداً كبيراً .

بعد لحظات تناول الفوطة وراح يلف نهاياتها حتى تكومت فوق بعضها ولفها حول خصره ثم عاد فربطها حول رقبته وخرج من حجرة النوم .

كنت أتتبع صوت الشبشب الذى يرتديه فى جولته بالمنزل والفناء الخلفى .. توقف ليرى زهوره وينزع البراعم الذابلة وسمعته ينادى شخصاً ما

لإحضار المقص للتخلص من الفروع الذابلة .. كان واقفاً فى هدوء وسط نباتاته محدقاً إلى الزهور .

كان البعض من سكان المنزل بما فيهم الخادمة الكبيرة يبلّلون حصائرهم وهم نائمون بالليل فكانت رائحة البول منتشرة دائماً فى الهواء ومن تلك الرائحة كانوا ينقلون الطفل الذى يبول من حصيرته على الأرض إلى السرير ذى العوارض الأربعة حيث تمتص المرتبة تأثير المثانة ويضعون بعد ذلك المرتبة فى الشمس طوال اليوم لكنها لم تكن تفقد تماماً تلك الرائحة اللاذعة المنتشرة في الحجرة .

كان سرير أمى أكبر مرتين من سرير إسحق أو هكذا كان يبدو بالعقد النحاسية الكبيرة فى عوارضه الأربعة والكرات النحاسية الصغيرة فى أعلاه وأسفله .. كانت تختفى آثار أقدامنا من الدرابزين مما يجنبنا العقاب ولم نكن نتوقف عن اللعب بكرات القصدير حتى تقع ونفتقدها لكنه كان بمقدورنا الحصول على غيرها من المخزن الكبير .

كانت الأعمدة الأربعة بعقدها المتلألئة وما يحيط بها من كساء فاخر هى ما نتوق إليه وكانت الأربطة مكومة تحت السرير وكذا سلال الصابون وعلب السردين الصفيح وعلب السكر والشماعات والكافور الدائرى والمربع الشكل وكانت الطرود مربوطة بأوراق الشجر ثم كان الصابون المحلى وأباريق الحلوى والأشياء التى كانوا يصنعونها فى المنزل مثل النعناع الذى يضعونه فوق عتبة النافذة فى أوراق غريبة .

وفى الركن كانت الكتب المقدسة وكتب التراتيل وبعض الكتب القديمة وأيضا صفائح الكيروسين وزيت النخيل وزيت البندق وثمة أوان مطلية بالخزف تحتوى بداخلها الفول والقمح المجفف .

عندما كان يأتى أبى إلى هذه الحجرة الغريبة للبحث عن شئ ما فإنه كان يعود من حيث أتى وهويهز رأسه بيأس وصبر .

كان صندوق الخزانة تحت السرير أو فى أحد الأركان مليئا بأشياء من نوع مختلف .. علب المجوهرات ، خرز ، أساور ، حلقان الأذن وحلى أخرى ، كتاب مقدس ملفوف بالجلد وكتب التراتيل والصلاة المزركشة بشرائط من الحرير وكانت أيضاً تلك القطع الصينية وكأنها آثار جروح في الوجه وثمة أشياء أخرى عجيبة ومزخرفة كنا نشاهدها كثيراً فى الإحتفالات أو مع الزائرين القادمين من أماكن بعيدة وغريبة .

فى الليل كانوا يفرشون حصائر النوم فى حجرة أمى لأولئك الأطفال القادمين مع ذويهم .. كان بعض أولئك الأطفال مصاباً بأورام فى الرأس وكانت بطونهم تتلوى من الوجبات الفقيرة ومتآكلة أقدامهم أما عن شعورهم فكانت مليئة بالقمل غير أن البعض الآخر كانوا يرتدون ثيابهم بأناقة وكانت صناديقهم مليئة بالملابس الجديدة وجيوبهم عامرة بالنقود .

كنت أتعجب لأولئك الذين يتنازلون بسهولة عن أطفالهم لمنزل الناظر وزوجته ولم أكن قادراً على الإستمتاع معهم والاحساس بالألفة تجاههم كما كنت أشعر بمودة فى حجرة نوم أبى .

كان (ديبو) ما يزال صغيراً ولكونه ولداً فقد كنت أعرف أنه سيلحق بى فى حجرتنا التى كانت رائحة العفونة تتسرب إليها من أوراق النخيل المتراكمة وتلك الكراسات والملفات والحقائب الجلدية والخراطيم المعدنية والأحذية الجلدية .. كان إسحق يقلل من حجم الأوراق المتراكمة بإحراقها مرتين فى العام.

كانت ذرات التراب تتسلل إلى الحجرة من النافذة وكذا أشعة الشمس وكنت شغوفاً بالكتب المرتبة بعناية فوق الأرفف مما أثار دهشة إسحق فقد كانت شهيتى للكتب عظيمة حتى أن المسيحية المتوحشة كانت تجعل الزائرين يشاهدوننى وذات يوم أحضرت (تينى) لترانى وأنا أطالع الكتب ووبختها لأنها لم تكن تحب القراءة وذلك ما ضايقنى وجعل القراءة عملاً غير محبب لأن (تينى) كانت أقرب زملاء اللعب وكانت الرابطة بيننا قوية.

كانت أمى دائما تتهمنى بأننى أمتلك روحاً شريرة وكنت أبدو مندهشا لأن أحداً لا يشاركنى إحساسى بالظلم وفى محاولة للهرب من أفكارى المزعجة رحت أتطلع إلى الخريطة فوق الحائط فى حجرة أبى ثم رحت أقلد إسحق فى ألعابه الرياضية .

فتحت (لاوانل) الباب دون إستئذان وقالت : ماذا تفعل ؟

* من المفروض أن تطرقى الباب قبل الدخول إلى حجرة بابا .

* نعم .. ذلك إذا كنت أنت بابا .

قلت معترضاً : إنها ما تزال حجرتنا .

قـالـت : ولن تكون كـذلك لمدة طويلة .. أنت الآن أصـبـحت كـبـيـراً .. هل تعـرف ؟

* وما الفرق فى ذلك ؟

هزت كـتفيـها وهى تقول : سوف تكتشف ذلك فى حينه والآن تعال لأن ماما تسأل عما تفعله حتى الآن فى الحجرة .. لماذا لم تأخذ حمامك ؟

* أى شئ سوف أكتشفه ؟

* أوه .. ياإلهى .. دائما تسأل سؤلاً وراء سؤال : ألا تتوقف أبداً عن الأسئلة .. إن ذلك عيب كبير فيك فأنت تحب الجدل كثيراً فهل تتصور نفسك بابا آخر ؟

* ما هو الشئ الذى سوف أكتشفه ؟

قالت وهى تتمايل : أعنى بأنه ثمة تغيرات ستحدث فى هذا المنزل .

* أية تغييرات ؟

قاومت (لاوانل) ضحكاتها قائلة : سوف تعرف حالاً .

* لم أعد أهتم .. إحتفظى بأسرارك لنفسك .

شدتنى إلى ركن الصالة وسألتنى : ألم يخبرك بابا أنه مسافر ؟

* إلى أين ؟

* ها أنت تسأل مرة أخرى .. إننى أنا التى تسألك .. أنت مجادل عظيم .

كذبت قائلاً : أعرف أنه مسافر لأنه فى الليلة الماضية حكى لى قصة إضافية كعادته حين يسافر بعض الوقت .

* كان يجب أن يخبرك عن مكان سفره .

كنا قد عبرنا الصالة ووصلنا إلى الفناء الخلفى وكان مستحيلاً أن تستمر المناقشة .

دعكت جسدى فى الحمام وشعرت بالمرض والخوف فقد تسببت كلمات (لاوانل) فى قلقى مثلما كانت تفعل أمى حين تتكلم ولا تنتهى مما تقول .. كنت قد ورثت عن إسحق عدم الرضا .

كنت أنام على حصيرتى فى حجرة أبى وكانت (تينى) وأولاد العم ينامون فوق الحصير العادى الذى أكرهه كثيراً لأن بعضاً منهم وهم أكبر منى كانوا يبولون عليه .

سافر أبى ودخلت حجرة نوم أمى .. كنت أنتظر عودته بقلق وحين عودته سارعت باستعادة مكانى لكن أمى منعتنى قائلة : (وول) ..لماذا لا تنام مع

الآخـرين هذه الليلة ؟ .. لا يجب أن تتـخلى عنهم بسـبب عودة أبيك كـما أن أخيك الصغير يأتى أحياناً لينام معك .

لم أصـدق إهتمـام أمى بأحـاسيس (ديبو) ورضـيت بتأجيل عـودتى إلى مكانى فى ليلة أخرى وفى الليلة التالية عدت كما كنت .. كانوا ينامون بطريقة غريبـة وسرعـان مـا يبـدأون فى الشـخيـر وكانت الصفـارة التى تطلقـها أمى تقودهـم إلى السرير وأحياناً كنت أستيقظ فى منتصف الليل على أثر أصوات فى الحجرة كانت شبيهة بتلك الأصوات التى كنا نسمعها عند ذهابنا للمصنع لرؤية الليمون الهندى والبرتقال والجوافة التى يعبئونها فى علب بعد سلسلة من عـمليـات التنظيف والتـقطيـع بالمحـركـات والسـيـور والكبـاسـات وغـلايات البخار.

فى الصبـاح كانت المناقشة غالباً تدور حـول مـعرفة الشـخص الذى تبول فوق الحـصيرة وكانت أمى متخـصـصـة فى حل ذلك اللغز ... كانت رائحـة البول تنتشر فى كل صباح .

- فى كثير من الأحيان كنا نمارس اللعب فى الشوارع العامة وكنا نتسلق الأعمـدة وسـور الكنيسـة حيث نرى "آكيـة" ولم تكن مـواكب الجنازات تجـعلنا نلتزم الهدوء والأدب فقد كانت شبيهة بحفلات الزفاف والرقص وكان النعش أحـيـاناً يقـوده الحـصـان والتـابوت مـتـوجـاً بالزهور وأوراق النـخيل ... كـانت أجراس كنيسـة القديس بطرس تدق قليلاً قبل وصول حشد المشيعين الذين تبدو على وجوههم علامات الحزن .

كانوا ينقلون النعش من العربة إلى داخل الكنيسة ويضعونه فى مواجهة المذبح وهم يرتلون وينشدون أناشيد هادئة تتناسب مع الموقف بينما النسوة تسترسلن فى النواح وتظهر الأبواق من حيث لا ندرى كذلك المزامير والطبول والدفوف .

Ileo , ile o

Ileo , ile o

Baba (iya) re'le re

Ile lo lo larara

Baba re'le re

Ile lo lo , ko s'ina *

- كانت السرقة هى إحدى المواقف التى يشارك فيها الصبية والأولاد فى جلد السارق وكانت سرقة اللحم من إناء الشوربة تبدو واضحة على اللص حيث يكون الفم ملطخاً بزيت الإناء ..

* المنزل .. المنزل

ذهب الأكبر سناً للمنزل

مباشرة

ذهب الأكبر للمنزل

المنزل المقيد به .. إنه لن يضل طريقه

ذات مساء كانت أمى تجهز العشاء وكنا نطوف حولها ونمسك بها ثم تطرق الحديث إلى الحصائر المبللة من البول وراحت تهدد بالعقاب الشديد لمن يبلّل الحصائر أو يسرق اللحم .

نظرت نحوى وقالت : (وول) يخطط للسرقة من الإناء .

* لا ..

* وربما فعل ذلك دون أن نراه .

قال جوزيف : إذا رأيته متلبساً فإنه سيدافع عن نفسه

قالت ماما : لا يستطيع الدفاع عن نفسه أمامى .. إن والده هو الذى يتمتع بقدر كبير من الصبر عليه .

قال إبن العم مقاطعاً : على أية حال فإن (وول) مغرم بسرقة الحلوى والسكر ولبن البودرة وأشياء من هذا النوع .

نظرت إلى ذلك الولد متحدياً إياه وتعجبت لمعرفته تلك لكننى فرحت لأنه لا يعرف أننى دائماً أسرق من علبة اللاكتوجين *

بعد أن تم فطام (ديبو) وبدأ يأكل مثلنا كانوا يضعون العلبة الكبيرة من اللاكتوجين فى أحد الأركان .. كنت أحب تلك العلبة وما تحويه من بودرة

* علبة لبن أو شئ مصنوع من اللبن

ذات طعم لذيذ وشهى كان يبدو لى أشهى طعم فى العالم .. لم يكن ذلك سرقة فإن أحداً لم يتذكر العلبة التى أخفيتها وسط الأشياء الثمينة حتى أشبع نهمى منها من وقت لآخر .

بعد شهر تم إكتشاف العلبة لكن أحداً لم يعرف ما تبقى منها .. راحت أمى تستدعى كل واحد منا وتسأله ثم تهدده وصممت على النيل من اللص المتهور فور معرفته والإمساك به .

مضى إسبوع دون أن أعترف وبينما كانت أمى تعد الخضروات فى الغناء راحت تفتح باب مخزن المؤونة وحين شاهدتنى أو مأت برأسها وقالت : إنه أنت .. كنت أعتقد ذلك ودائماً كانت شكوكى تحوم حولك .

لم تضربنى كالعادة لكنها ظلت هادئة مما أفزعنى وشعرت بالقلق لأننى توجهت بنفسى نحو الفخ

قالت : سننتظر عودة أبيك كى ينال منك ثم أتولى أنا دورى فى العقاب

.بدأت أخطط للهرب .. إن أحداً لم يتذكر العلبة منذ وقت طويل وكنت أحتفظ بها فى حمايتى لمدة شهرين تقريباً وأنا أنظر إليها فى كل مرة وكأنها جائزتى الخاصة .

قلت لنفسى : سوف أهرب بعيداً بعد أن أقوم بتفريغها على الأرض كنوع من الإحتجاج النهائى .

تحركت خلسة من مخزن المؤونة إلى حجرة النوم ثم إلى الحجرة الأمامية

حيث توجد غالبية كتبى .. وضعت الكتب فى حقيبة صغيرة وانتظرت لحظة الهرب المناسبة .

عاد إسحق من المدرسة فسارعت المسيحية المتوحشة بالإختفاء معه فى الحجرة كى تخبره بالاكتشاف الكبير فكانت تلك هى اللحظة المناسبة للهروب .. سرت فوق أطراف أصابعى عبر الصالة إلى الحجرة الأمامية لكننى سمعت أصواتاً من حجرة النوم جعلتنى أتردد .. توقفت لأسمع .. كان يبدو أن أمى غير مسرورة لأن إسحق لم يحاول معالجة الموقف .

سمعته يتذ مر : كان يجب أن تجلديه .. لماذا تسببين لى القلق ؟

وسمعتها ترد : لكنه إنتهى من نصف العلبة تقريباً فأنا أتذكر جيداً بأنها كانت مليئة عن آخرها عندما إستخدمتها آخر مرة من أجل (ديبو) .

قال إسحق : أرجو عدم الإزعاج ولك أن تعاقبيه على العلبة بكاملها لكننى ما زلت لا أفهم لماذا لم تضربيه فى وقتها ؟

لم تكن المسيحية المتوحشة تعرف وجهتها وهى تخرج من الحجرة وكان الوقت كافياً لإلقاء الحقيبة من الباب المنخفض إلى الرصيف .. سحبتنى إلى الفناء الخارجى ولم أكن أفكر إلا فى تلك الحقيبة الملقاه على الرصيف والتى تحتوى على كتبى المفضلة وملابسى .. صاحت تطالب بالعصا فوجدت نفسى أقفز فى الفناء تجنباً للضربات القاسية واللكمات باليد والقدم .. ظللت خائفاً حتى اللحظة الأخيرة وتمنيت لو حدث الضرب خارج فنائنا ثم خطر بذهنى أن أسارع بالحركة ملتقطاً ممتلكاتى وأجرى فى شوارع الإرسالية فى كل

الإتجاهات بعيداً عن المنزل وسكان المنزل الذين يضمرون لى عداءً خاصاً وكانو سبباً فى طردى من حجرة إسحق .

كانت رأسى تزدحم بأفكار كثيرة وغريبة وكنت أشك كثيراً فى بقائى بذلك المنزل مدة طويلة .. قررت أن أمسك حقيبتى وأذهب بعيداً عن الإرسالية باحثاً عن حظى فى مكان آخر .

عندما تسللت إلى الخارج بعد قليل لم أجد الحقيبة .. كان جوزيف قد وجدها واحتفظ بمحتوياتها حيث يحتفظ بأشيائه ولم أكن أعرف ما أفعله معه وفى نفس تلك الليلة بعد أن ناموا جميعاً وكانت أمى تهز السقف بشخيرها مشيت فوق أطراف أصابعى نحو مخزن المؤونة وملأت فمى بلبن البودرة ثم عدت مسرعاً إلى الحصيرة .. كانت البودرة تذوب وتتحلل ببطء فى حلقى .

فى الصباح لم أكن أحس بأى ألم من ضرب الليلة الفائتة .

(٧)

ـ كل شئ فى المنزل كان مستقراً وكان من العسير أن يتنبأ أحد بالتغيير .. الضيوف ، الأقرباء ، الزائرون الذين يعبرون بالصدفة ، العلاقات البسيطة ، أولاد العم وبعض الأحداث القليلة المتكررة .. كنا نحس كل ذلك ونتعايش معه وفجأة تغير كل شئ .. بدت الملامح التى نعرفها غريبة عن ذى قبل وتغير كل من كنت أنا و (تينى) نتعامل معهم ونعايشهم كما أن (تينى) نفسها تغيرت حتى رحت بدورى أتساءل عما إذا كنت أنا أيضاً قد تغيرت دون أن أعرف .

قلت لتينى : هل ستخبريننى إذا بدأت أتغير ؟ .. سوف تقولين لى بأننى تغيرت .. أليس كذلك ؟

قالت (تينى) : عن أى شئ تتحدث .

- ألا تلاحظى ؟ جوزيف ، لاوانل ، نوبى .. كل شخص تغير .. بابا وماما تغيروا وحتى السيد (أديلوا) تغير .

إنه مولد (ديبو) الوشيك .. لقد حدث التغيير قبل مولده بفترة طويلة .. لم يكن هناك من شئ يمكن ملاحظته على المسيحية المتوحشة والتى لم تكن سوى متوحشة سوى أن بطنها بدأت فى الإنتفاخ حتى خطر ببالى ذات مرة بأنها لابد قد تناولت كثيراً من الطعام وأن هذه طريقة فى نمو الكبار ثم تمنيت أن أنمو وأكبر حتى أصبح طويلاً مثل أبى .

كان صراخ أخى المولود وتلك الموهبة العظيمة على إزعاج الآخرين هو

نهاية ذلك التغيير فاختفت نظرات إسحق القلقة وتبدلت بإبتسامات لا نهائية مع بعض الضحكات وبدا المنزل فى حالة من الإسترخاء وانهال الزائرون إلى المنزل فرحت أبحث عن ملاذى عند «چونا» هارباً من ذلك الضجيج المفاجئ .

أحياناً لا يكون التغيير متعلقاً بالأشخاص وهذا ما حدث ذات مرة حين قامت المسيحية المتوحشه فجأة بإعادة ترتيب الأثاث وفى أثناء ذلك كنا نصطاد الحشرات من المفارش والأغطية وكان أن إكتشفنا كثيراً من الثقوب فى أغطية الوسائد والمساند وكنا نقوم بتسخين الإبرة فوق نار الشمعة للقضاء على الحشرات وتم نقل الكراسى المنخفضة والكراسى ذات المساند من مكانها .

تغيرت أيضاً أماكن النوم وتم إبعاد كل شخص من حجرة نوم أمى وأصبحت الصالة هى مكان النوم الجديد بعد أن تحركت الكراسى قليلاً وانتقلت المائدة من المنتصف إلى أحد الأركان فكانت الحصائر والوسائد تنتشر أثناء النوم حتى أن إسحق كان يتعثر بالأجساد المتراكمة عند نهوضه فى الليل للشرب .

... كان ذلك تغييراً يبعث على السرور ولم يعد الواحد منا يستيقظ وأنفه ملتصق بتلك العيون السوداء :

كانت الأخبار التى نسمعها أيضاً تحمل بعض التغيير ولم نكن نتعمد سماعها فقد كان من العسير ألا نستمع إلى المحادثات القائمة فى أرجاء كثيرة من المنزل .. كان الزائرون يأتون دائماً ولا يتوقفون عن الحديث والجدال

وحين توقف بعضهم عن الحضور أصبح لزاماً علينا أن نتعلم لغة جديدة وعلاقات جديدة مع الأشياء والناس .

شعرت أكثر من مرة أن سكان المنزل يعدون أنفسهم للخروج من «آكية» تماماً .. إلى أين وكيف ولماذا ؟ .. إن ذلك لم يحدث أبداً .. كان مجرد إحساس فقط !!

عند مولد (فولاساد) أصبح التغيير مختلفاً .. كان مولد (فولاساد) بعد (ديبو) لكنها لم تكن مثله فى شئ كانت طفلة هادئة ثم إنقلب حالها وصارت تصرخ ليل نهار وهى راقدة فى سريرها الهزاز .. كانت تأكل بصعوبة كبيرة وكنا نلاحظ المجهود الكبير الذى تبذله واضحاً فى عينيها .. عندما كنا نلمس يديها حين كان عمرها عشرة شهور كانت تقبض على أصابعنا بكل قوتها من خلال فتحات السرير الهزاز ثم فجأة ترف بعينيها وتحرك أنفها .. كانت عيناها تؤكدان شدة ما تعانى وهى تعاود الصراخ دون توقف .

مضت أمى وإسحق إلى حجرة نومه وظلا بداخلها بضع ساعات إستطعنا خلالها أن نسمعهما يتحدثان دون أن نقدر على إلتقاط أى كلمة .. كانا يتحدثان بصوت منخفض ثم إستدعيا الخادمة التى كانت حادة وعنيفة وهى تنكر التهمة الموجهة إليها .

قالت : إن الله شاهد على ما أقول .

ثم كررت كثيراً : لم يحدث شئ .. لا شئ ياسيدى .. لاشئ على الإطلاق.

وإنصرفت من حجرة النوم راسمة فوق وجهها علامات الظلم والإتهامات والشكوك الزائفة .

ذهبت (فولاساد) فى الصباح إلى المستشفى ولم تعد إلا فى وقت متأخر بعد الظهر وكان جسدها الصغير ملفوفاً بالشال والبلاستر من تحت إبطها وحتى أردافها ولم تكن المسيحية المتوحشة تحملها فوق ظهرها وإنما بين ذراعيها لكنها لم تكن تتوقف عن الصراخ من وقت لآخر وفى ليال عديدة كانت تبقى مستيقظة .

نهضت يوماً من فوق حصيرتى ورحت أحبو ناحية السريرالهزاز ثم نظرت إلى عينيها الهادئتين فبدالى أنها لا تعرفنى .

ذات يوم كانت الخادمة تجلس وحيدة مع نفسها وهى تبكى .. كانت دائماً وحيدة لا يتحدث معها أحد .. كان طبق الطعام بجانبها كما هو لم تأكله وحين سألتها عما حدث أفزعتنى ببكائها الكثير المفاجئ حتى أننى لم أستطع أن أتبين ما تقول من خلال ذلك البكاء .

قالت : أقسم أنها لم تقع منى .. أقسم بالله أنها لم تقع منى فى أى وقت فقد كنت أعتنى بها ..

كانت تجلس على بعد خطوات من المخزن فى الفناء وهى تتطلع إلى أحد نوافذ حجرة نوم ماما وحين فتحت ماما النافذة لم أكن قد رأيت وجهها من قبل بمثل ذلك الكم الهائل من الحزن والغضب وهى تحدق فى الخادمة الباكية .. كانت قد سمعت الخادمة وظلت تحدق فيها ..

نظرت الخادمة إلى أعلى وشاهدت المسيحية المتوحشة فجفت دموعها فى الحال وفى وقت متأخر من نفس المساء تم استدعاء الخادمة مرة ثانية واستغرق الحوار وقتاً طويلاً كنت غرقت فى النوم قبل الأنتهاء منه .

فى الصباح كانت الخادمة قد ذهبت هى وأمتعتها بينما ذهب إسحق وأمى وفولاساد إلى المستشفى الكاثولوكية فى "إيتابادى" فساد المنزل الفرح لغيابهم رغم مرض (فولاساد) ..كنا فقط نعانى قليلاً من القلق .

أعلن جوزيف أن الخادمة حزمت أشياءها الليلة الفائتة ولم يكن يعرف الجهة التى ذهب إليها إسحق والمسيحية المنوحشة مع (فولاساد) لكنه حين نظرمن السور إليهم عرف أن طريقهم يؤدى إلى المستشفى فى "إيتابادى" .

لم يحدث أى تغير فى ملامح (فولاساد) عند عودتهم ولم يتغير شئ فى تحركاتها فوق السرير الهزاز ... أثناء وجود إسحق فى المدرسة لم تكن أمى تغادر حجرته .. كانت ترقد فوق السرير أو تمضى وقتها فى الصلاة .... كانت تصلى كثيراً لكن النجار الذى يملك ورشة فى ركن الطريق المؤدى إلى سور الكنيسة جاء إلى المنزل ذات صباح وهو يحمل صندوقاً خشبياً صغيراً ذا شكل مربع .. تناول أبى الصندوق ووضعه فى حجرة نوم المسيحية المتوحشة التى سمعتها تقول : يجب أن يشاهدها الأولاد أولاً ..

أليس كذلك ؟

كانت (فولاساد) راقدة ومغطاة بقطعة طويلة من القماش الأبيض تمتد حتى قدميها وكانت عيناها مغلقتين .. كانت (تينى) حين نظرت إليها واقفة بهدوء دون إى إحساس بينما وجه المسيحية المتوحشة كان مزيناً بإبتسامة حزينة حلوة وهى تقول أشياء لم أستطع أن أفهمها لكننى فهمتها وهى تقول : لايجب أن تحزنوا على أى شئ لأن (فولاساد) لم تعد تعانى من الآلام ، هل ترون ، لم تعد تعانى أى شئ .

نظرت مرة أخرى إلى (تينى) وتوقعت أن تفعل شيئاً أو تقول أى شئ لأنها أكبر منى لكنها ظلت تحدّق فى الجسد بعينيها الهادئتين متفحصة أختها الساكنة فى صمت .

فجأة كسرت الصمت حين تملكتنى قوة غريبة وجريت نحوالسرير وأنا أبكى .. أمسكنى أبى ورحت أقاوم محاولاته فى تهدئتى وكانت دموعى غزيرة وأنا منجذب نحو السرير وثمة تساؤلات كانت تعترضنى .

رأيت من خلال دموعى تلك الدهشة الغريبة فوق وجه أمى وسمعتها تقول : إنه لا يفهم .. لا يفهم !!

– توقعت تغييراً كبيراً برحيل (فولاساد) لكن شيئاً لم يحدث .. إن شيئاً لم يتغير وكان ذلك فوق طاقتى فبدأت أدبر المكائد بين أبى وأمى من أجل حدوث تغيير ما ولكن دون جدوى كما لو أن (فولاساد) لم تمت أو كما لو أن موتها لم يكن يعنى شيئاً على الإطلاق .

- كانت الأبينة فى «أكية» من الطين الهش فكانت تنهار بسرعة عند سقوط الأمطار فى يوليو وأغسطس وكذا كانت الرياح قوية تطوح بألواح الحديد المتموجة إلى أسطح أخرى وعند إنهيار البيت فوق ساكنيه كان الذى يظل حياً يقف مبللاً ومرتعشاً وسط بركة من المياه ويحكى قصة الكارثة أما إسحق فإنه يفتش فى حقيبته عن بعض الملابس القديمة بينما تذهب المسيحية المتوحشة لإعداد الشاى المغلى والعسل والسكر واللبن مع قطعة كبيرة من الخبز الأبيض بالزبدة وذات يوم من أيام المطر الشديد تسللت إلى الخارج ففتحت أمى الشباك قائلة : إلى إين أنت ذاهب ؟

* ذاهب إلى المدرسة .

* لماذا ؟ ماذا تنوى بالضبط ؟

* سوف أجمع بعض الجوافة .. لابد أن الأرض مليئة بالجوافة بعد سقوط الأمطار .

* دع (بونمى) تذهب معك فقد يصيبك البرد .

* لا .. إنها شجرتى أنا .. شجرة الجوافة ملكى أنا .

صاحت المسيحية المتوحشة قائلة : هل جننت ؟ قلت لك ألا تذهب .. تعال هنا .

رجعت ووقفت على قدمى المرتعشتين ثم وضعت يدى خلف ظهرى .

* هل تسمع ما أقول ؟

* أسمع ماما .. أنا ذاهب للقراءة في كتابى

* وما الذى يجب أن تقوله عندما تتحدث ؟

* يجب أن أقول نعم .. نعم ماما .

حدّقت فىّ بعنف وقالت : أغرب عن وجهى .. إذهب بعيداً .

* نعم ..ماما .

جاءت (بونمى) من البوابة الخلفية فأمسكت بها قائلاً : إذا إمتدت يدك إلى شجرة الجوافة فإن العفاريت ستهاجمك فى الليل .. إنها شجرتى أنا .

* إذهب بعيداً عنى ..ها أنت لا تعرف شيئاً عن الأرواح .

* لو إقتربت من الشجرة وقمت بلمسها فسوف تعرفين مَنْ منا على صواب .. ها أنذا أحذرك .

* أنت تشعر بالغيرفقط لأن ماما لم تسمح لك بالذهاب كى تحصل على الجوافة .

* إننى أحذرك للمرة الأخيرة ..لا تقتربى من الجوافة حتى لو كانت ملقاة على الأرض .

أخبرت أمى بتهديداتى وفى المساء كانت تحدق فىَّ من وقت لآخر .. عندما

إنتهى إسحق من طعامه أعلنت المسيحية المتوحشة بصوت عال وهى تنظر نحوى : سألحق بك كى نتناقش .

صاح إسحق : أوه .. حسناً .

رفعت (بونمى) إصبعها فى إتجاه أنفى : والآن سوف نرى من الذى سيتلقى الضربات هذه الليلة .

* لماذا ؟ ما هى الجريمة التى ارتكبتها ؟

* عنيد .. عندما أخبرتها قالت أنك عنيد جداً وأنها ستقول لبابا .

ذهبت إلى الحجرة الأمامية للقراءة متوقعا إستدعائى فى أى وقت ولم أكن قلقاً بشأن ذلك .

* إلى أى شئ تنظر ؟

* أنفك .

* ها أنت تصير وقحاً مرة أخرى .. سوف أخبر ماما .

* أستطيع أن أكون وقحاً مع الذين يكبروننى فى السن أما أنت فمن تكونين ؟

* الوقاحة هى الوقاحة ويجب أن تنتبه لوقاحتك .. ذلك ما قالته ماما .

قلت لها : هل أسأت إليك ؟

حدقت (بونمى) فى وجهى ونظرة إرتباك وحيرة تتلألأ فى عينيها : (وول) ..ماذا جرى لك ؟ .. لماذاتريد أن تتصارع مع الجميع ؟

* إتركونى وحيداً .

– لم أستطع أبداً أن أكون وحيداً .. كانوا دائماً يصدرون التعليمات بتعقبى فلم أسعد إلا قليلاً بالوحدة .. الوحدة .. إن (بوكولا) هى التى تناسب مزاجى فكنت أهرب إلى بائع الكتب كلما سنحت الفرصة .. إن (بوكولا) تعرف كيف تكون هادئة حتى وهى تتكلم .. كانت تنقلنى إلى عالم الهدوء الذى أتوق إليه وكنت أتعمد ملاحظتها بحثاً عن إجابة للأسئلة التى تدور فى ذهنى.

كنت أشعر بالأمن والسلام مع (بوكولا) .. فقط مع (بوكولا) .

– كانت المسيحية المتوحشة تتناقش دائماً مع إسحق بشأنى بعداء وخصومة ولم أكن أتردد فى التصنت على ما يقولان وأحياناً كانت (تينى) تأتى لإستدعائى وفى أحيان أخرى كانت (نوبى) أو (جوزيف) هما الذان يبلغاننى وكانا يفرحان كثيراً لخوفى من ذلك الأستدعاء .. كنت أسير خلفهم لاصقاً أذنى فوق الستارة لأجل مزيد من التصنت .

قالت أمى لإسحق : لا جديد .. إنه دائماً يميل إلى التأمل ..إنه دائم التفكير .

* وإذن فلاشئ يستدعى القلق .

* إنها ليست ظاهرة صحية بالنسبة لطفل مثله .. كان طبيعياً عندما

كانت (تينى) هى صديقته الوحيدة فى اللعب .. لم يكن بمثل هذا السوء أما الأن وبعد مضى بضع سنوات فإنه يميل إلى التفكير والشرود ثم ذلك التوقف الطويل الذى يقضيه معك يساعده فى قطع صلته ببقية العائلة .

* إذن فأنت تلومننى الآن !؟

* أنا لا ألومك يا عزيزى وإنما أحاول ألا نساعده أكثر لأن ذلك يجعله عنيداً .

* لم أشعر يوماً ما أنه عنيد .

* لأنك دائماً خارج المنزل كما أن بقية الأولاد لا يخبرونك بما يفعل .

* سوف ألاحظه عن قرب .

* يجب أن نساعده على الإحتكاك بالآخرين .. يجب ألا ينطوى على نفسه .

* نعم .. هو كذلك .

- جاءت السيدة (أدوفوا) لزيارتنا وشعرت - فور رؤيتها - بمعنوياتى ترتفع قليلاً.. كانت سيدة بسيطة ومتصالحة مع الجميع ما عدا زوجها ذى الأحاسيس الغليظة .. كانت (أدوفوا) أجمل إمرأة وقعت عليها عيناى فى العالم ولم أكن أحقد على زوجها الغليظ الذى كان بمثابة أبى الروحى الذى لن يعترض على زواجى من تلك المعبودة حين أكبر وأصبح رجلاً من الرجال .

كنت دائماً أتابعها بنظراتى وهى تتجول فى الحديقة مع زوجها ولم تكن تدعونا بأسمائنا وإنما بألقاب مختلفة فكانت تدعو (تينى) "بالمرأة الرقيقة" «obinrin Jeje» وكان ذلك إختياراً صائباً يوحى بمهارة وذكاء السيدة (أدوفوا) وعند رؤيتها لى ذات يوم وأنا أحاول جاهداً أن أساعد (جوزيف) فى تكسير الأخشاب التى تشعل فيها النار للتدفئة بإستخدام الفأس أطلقت على لقب "قاطع الأشجار" «Lagilagi» وسرعان ما عرفنى الجميع بذلك اللقب أما (ديبو) فقد لقبته "چامانى" «Jamani» لتشابهه مع الجنس الألمانى فى حب الشغب والحرب.

كانت معبودتى فى أوقات الفراغ تتجول مع زوجها بين الزهور دون أن أتوقف عن متابعتهما حين يكون (جوزيف) إلى جوارهما يقوم بإعداد كتل الخشب وتنسيقها وفى مكان آخر ليس ببعيد تكون المسيحية المتوحشة وهى تداعب الزهور من الساق وتشم رائحتها .. جاء (چامانى) فى ذلك الوقت من حيث لا أدرى كى يمارس عمليات الشغب وكان يمشى متأنقاً وهو يقفز إلى الأمام والخلف فى حركات جنونية لكننى لم أشأ إلا أن أتسامح معه .

إتجهت السيدة (أدوفوا) ناحيتى وقالت : (LagiLagi) أعرف أنك تعتنى دائماً بالزهور مثل أبيك .

شعرت بشئ خاص وهى تكلمنى ورحت أتابع صوتها مرة أخرى فى رأسى حين تدخل (جوزيف) وقال بصوته الرنان :Lagilagi !! لا تدعيه بهذا الإسم مرة ثانية مدام .. إنه لا يقدر على فعل شئ فهو كسول جداً ولا

يستطيع حتى أن يحرك الذبابة من فوق أنفه إذا تسببت فى مضايقته .

تعجبت لقدرة (جوزيف) على إلتقاط ومعرفة لغة اليوروبا الخاصة فلم يكن يتحدث بها إلا بطريقة غريبة رغم قضائه سنوات عديدة معنا .. شعرت بالخجل مما قال ففتحت فمى وحدقت فيه قائلاً : هل ذلك حقيقى ؟

قفز (ديبو) إلى جوارنا فأشار إليه (جوزيف) قائلاً للسيدة(أدوفوا) : إنظرى إلى أخيه الذى يصغره بثلاث سنوات تقريبا .. إنه أكثر صلابة من ذلك الذى تسمينه LagiLagi وأراهن أن (ديبو) يستطيع أن يرفع هذه الفأس ويشق بها الخشب .

تحركت خطوة للأمام دون تردد ثم رفعت الفأس وضربت كتلة الخشب وكانت ماما قد إلتحقت بنا لكن (جوزيف) لم يفعل شيئاً سوى إنه تنحى جانباً كالذليل وراح يتظاهر بالقراءة .

شعرت بحرج شديد .. ما الذى فعلته ؟ ولماذا يحاولون التقليل من شأنى أمام معبودتى التى ستصبح زوجتى ؟

تجولت ببصرى من واحد إلى الآخر .. كانوا بلداء ومنى كانوا يضحكون .

ظهرت نوبى فجأة وقالت : إن مجرد رؤيته لأى شجار يجعله يهرب .. إنه يبكى لمجرد أن يلمسه أحد .

إستطردت وهى تضحك بإستهزاء : هاآآم ..إن الإغماء يصيبه فور الاقتراب منه .. إذن دعه مع كتبه .

سألت نفسى عن الشخص الذى يتحدثون عنه وأحسست أن كل ما يقولون مجرد ألغاز .. ربما كانوا يتحدثون عن شخص ما أوعمل ما لكننى أدركت أنهم يقصدوننى بالحديث ولم أستطع التعرف على نفسى فيما يقولون .

كان (ديبو) ما يزال يقفز حين أوقفه (جوزيف) وأمسك به محولاً وجهه ناحيتى : أراهن أن (ديبو) يستطيع أن يضربه ضرباً شديداً .

- قالت المسيحية المتوحشة : طبعاً .. إنه يستطيع أن يضربه حتى يتوسل إليه طالباً الرحمة .

لم يكن يهمنى شئ سوى معرفة ما يدوربرأس السيدة (أودفوا) .. هل كانت تصدق كل ذلك ؟ .. كانت تقف مع زوجها بجانب شجرة الجوافة الصغيرة وإبتسامة غريبة تعلو وجهها .

تساءلت (نوبى) : لماذا لا نرى بأنفسنا ؟ .. إن (ديبو) حقاً يستطيع أن يضربه .

لم يكن (ديبو) من ذلك النوع الذى يستطيع أن يقاوم دعوته للشجار وقد نجحوا فى إستفزازه فبدأ يفرك قبضة يده الصغيرة متأهباًلوضع القتال وهو يقفز من جانب إلى آخر مقلداً رقصة الحرب حتى لم يسبق لى أبداً من قبل أن رأيت مثل تلك الإثارة فوق وجهه .. هتفوا جميعاً من كل الإتجاهات بينما كنت واقفاً بدون إهتمام وأنا أستمتع بحركاته الجنونية .. كان شبيهاً بالقزم ، مرحاً ، خفيف الروح وكان الكبار يتطلعون فى شغف لما سوف يحدث .

سمعت فجأة صوت (جوزيف) : (ديبو) .. تقدم .. دعه يعرف نفسه .

تحرك (ديبو) الصغير ناحيتى رافعاً قبضته فى الهواء ولم أستطع أن أفهم السبب فى أهتمامهم

سمعت أصوات إحتجاج وتحذير ولكن الوقت كان قد مضى فقد إجتاحتنى عاصفة من الغضب وانتفخت عروقى وكانت اللكمات فوق وجه وجسد (ديبو) متلاحقة دون وعى منى ولم أستطع أن أتذكر ما فعلت

إدركت أنه صوت (جوزيف) الذى قال : (وول) .. *o to , o to .. هل تريد أن تقتله ؟

كان صوت أمى قلقا حين قالت : (وول) .. نحن فقط نقوم بإستفزاز مشاعرك .. لا تنس أنه أخوك الصغير .. آهـ .. لا يجب أن تكون عنيفاً معه هكذا مهما كان الأمر .

شعرت بالسماء تسقط فوق رأسى فإرتعشت بشدة ولم أشعر بشئ إلابيد المسيحية المتوحشة فوق جبهتى .. كانت تبدو قلقة .

سمعت نواح (ديبو) الذى حملوه إلى غرفة الطعام وقدموا له الحلوى وعصير الفاكهة كنوع من العزاء وكانت المسيحية المتوحشة تنظر بعينيها نظرات غريبة وقلقة ناحية (ديبو) الذى يبكى .. كانت تتألم وتبدو خائفة حتى أننى فكرت هامساً لنفسى : إنها أم مختلفة عما هى عليه دائماً .

* كفى .. كفى

أضافت قائلة : ولكن لماذا ؟ لماذا ؟ .. كان الأمر كله مزاحاً.. هل تريد أن تقتله ؟ .. إنه مازال طفلاً .. أنت تعرف أنه طفل ولا يصح التعامل معه بهذه القسوة.

توقف (ديبو) عن الصراخ وخرج (جوزيف) من الحجرة فأحسست أنه يبتعد عنى أوهكذا تخيلت لكن كلماته كانت تبين ما يشعر به حتى أنه لم يستطع أن يخاطبنى مباشرة وهو يقول : الأخ الأكبر سعيد بنفسه .. الأخ الأكبر مسرور بما فعل فلماذا نقلق ونتزعج ..كان يجب أن نتركه ليقتله .

ثم راح يصفر بفمه صفيراً طويلاً .

منعته المسيحية المتوحشة عن الكلام غير أننى لم أجد إختلافاً كبيراًفى موقف كلاهما .. كانت تتلبسنى فكرة واحدة هى أن عالم الكبار يخلو تماماً من العدالة والمنطق إذ كنت متأكداً من أننى مظلوم لأنه كان أخى الذى مارست عليه عنفى حين رفسنى بقوة فوجدت نفسى أمام الأمر الواقع .

إستدعتنى المسيحية المتوحشة بعد صلوات المساء إلى حجرة النوم وقالت لى : إن الشيطان دائماً يتدخل بينك وبين من تحب وإنه لمن اليسير أن تقع تحت تأثير الشيطان .

كنت أنا و(تينى) نحب (ديبو) كثيراً وكنا نستمتع بحركاته وإيماءاته وضحكاته لكونه كان صغيراً لا يعاقبه أحد إذا ما ارتكب حماقة ما فقد كنا ننسب إليه أخطاءنا مثل الفازة التى كسرناها أنا و(تينى) بينما كنا نتشاجر

- أصبح (ديبو) بعد فترة طويلة يطلب مقابلاً لخدماته التى نتجنب بها العقاب فكان يطلب قطعة من اللحم أو الحلوى أو البطاطا حتى أصبح ماهراً فى الحصول على ما يريد فأدركت أن الأمر سينتهى به إلي الخدمة فى دكان المسيحية المتوحشة وأنه سيكون إنتهازياً ولم أعد أعرف ماذا أفعل معه .

.... كانت مجرد فكرة تنذر بخطر كبير .

أخبرنى (جوزيف) وآخرون بمواصلة ضربه حتى يقع ويصرخ مدافعاً عن نفسه لكن الفكرة لم تعجبنى أبداً . كنت بائساً بشدة وانتظرت بقلق تلك اللحظة التى يخبرون فيها إسحق بما حدث لكنه لم يكن موجوداً .

(٨)

- دخل العمال المنزل ذات صباح مبكر وكانوا يحملون الأسلاك والمسامير والمشابك وراحوا يثقبون الحائط .. كان غريباً ذلك الغزو من العمال بمعداتهم وبعد إنتهائهم من عملهم لم نعد فى حاجة إلى مصابيح وفوانيس الكيروسين أو حتى إلى الشمعدان .. أصبحنا نضغط على المفتاح فتضئ الحجرة وتتلألأ بالنور وحين إستهوتنا اللعبة أصدر إسحق تعليماته بالأ يقرب أحد المفتاح إلا بأمر منه أو من المسيحية المتوحشة .. كانت التعليمات صارمة لكننى كنت مدركاً إنه بعد وقت قليل ستصبح تلك الكرة المتوهجة ظاهرة طبيعية رغم تظاهر إسحق بأنها نوع من أنواع السحر .

كنا ننظر إلى المصباح المضئ باندهاش ولما قرأ إسحق تلك الدهشة المرتسمة فوق وجوهنا هبَّ واقفا إلى جوار شئ ملتصق بالحائط ذى لون أبيض وأسود فانطفأ النور فجأة مما أثار مزيداً من دهشتنا لكننا فى النهاية شاهدناه وهو يضغط فوق ذلك الشئ الملتصق بالحائط .

قال إسحق : إن هذا الضوء السحرى باهظ جداً .. إنه يكلف الكثير فيجب أن نستخدمه بحكمة .

راح العمال يثقبون الحائط مرة أخرى ورحنا نتساءل عن السحر الجديد .. لم تكن ثمة مصابيح هذه المرة ولا مفاتيح إضافية للإضاءة وإنما هو صندوق خشبى كبير الذى جاءوا به إلى المنزل كانَ يبدو وكأنه مصنوع من الضفائر

الحريرية الرفيعة لكنه لم يكن بأى حال شبيهاً بالجرامفون .

فى أحد الأرفف المنخفضة من الدولاب وضعوا الصندوق الخشبى الكبير مكان الجرامفون القديم ولم نعد فى حاجة إلى رفع اليد وتغيير الإبرة .. كان كافياً مع ذلك الصندوق أن ندير المفتاح يساراً أو يميناً لنستمع إلى الأصوات والأغانى لكن ذلك لم يكن بمقدورنا أن نفعله طوال اليوم فقد كان الإرسال يبدأ مبكراً فى الصباح .

بقولة : « فى حماية الله أيها الملك .. حفظك الله أيها الملك »

ثم يواصل برامجه لفترة قصيرة تتخللها بعض الأغانى والبرامج الغريبة قبل أن يتوقف بعض الوقت ليبدأ مرة ثانية فى وقت متأخر من بعد الظهر إلى أن ينتهى ما بين العاشرة والحادية عشر مساء

بقوله : « فى حماية الله أيها الملك .. حفظك الله أيها الملك »

أطلقنا على ذلك الصندوق العجيب إسم * As'oromagc'esi وعند توصيله بالكهرباء كانت تصدر منه الخشخشة .

– كان التكهن بالأخبار عملاً صعباً فأصبحت نشرة الأخبار بالنسبة لإسحق وكثير من أصدقائه من الأشياء الهامة والمقدسة .. كانوا يندفعون إلى منزلنا وكأن شيئاً ما قد أصابهم فتبدو الصالة الكئيبة بوجودهم وكأنها مكان للحج ولم نكن نحن الأطفال نجرؤ على الكلام أثناء سماعهم الأخبار .. كانوا

* الشخص الذى يتحدث دون إنتظار إجابة من أحد .

يستمعون بإنتباه شديد ووجوه ذاهلة وكانوا يتنفسون بصعوبة وبعد الأنتهاء من سماع الأخبار كان يعتريهم القلق ويتملكهم الخوف فيتوجهون بالفطرة وفعل التعود إلى القس .. كان إسحق يتأمل لحظة ويفكر ثم يعلق على الأخبار فيشاركونه بأصوات مليئة بالإثارة والتوجس .

- تراكم التراب فوق الجرامفون ولم يعد أحد يستخدمه فاختفت معه أصوات "دينج" ، "باكار" ، "أمبروز وكامبل" وصوت الرجل الأسود "بول روبسن" وكذلك أغنيات عيد الميلاد وأغانى "ماريان أندرسون" والأصوات الأوربية وكورس "هاليلوجا" وصرنا نتابع الغناء والأخبار والبرامج من الصندوق الجديد حتى سمعنا ذات مرة كورس "هاليلوجا" من الصندوق فاتفقنا جميعاً على أنه أقوى وأجمل من صوته فى الجرامفون القديم الذى لم ننجح أبداً فى إسترداده .

كان أفراد العائلة يتصارعون على الصندوق فى كل صباح وكان ذلك شيئاً مثيراً أما ضحكاتهم فكان يهتز لها الصندوق حتى فكرنا أن نخرج به للشارع ليتصارع عليه الجميع أو نضعه فوق شباك المنزل وهو مفتوح بأعلى صوته .. آهـ لو أن كل العائلات التى نعرفها فى «آكية» فعلت نفس الشئ ... كانت فكرة مستحيلة لكننى أدركت أن ما نفعله فى الصباح من صراع لأجل الصندوق كان شبيهاً بالألعاب التى نمارسها أحياناًفى المدرسة فى يوم توزيع الجوائز ثم بدأت شيئاً فشيئاً أتعرف على كلامهم الغريب وأمزجتهم المختلفة .

- سيطرت أخبار الحرب على أحاديث إسحق وأصدقائه واحتلت مساحة كبيرة فى مناقشاتهم كما إحتكر هتلر أخبار الإذاعة وكانت له برامجه الخاصة وهو يقترب يوماً بعد يوم .

تم طلاء النوافذ باللون الأسود مع ترك دوائر صغيرة جداً دون طلاء حتى يتمكنوا من الرؤية ومشاهدة هتلر وهو قادم يسير بخطوات واثقة فى الطريق .

حلقت أول طائرة فوق «أبيوكوتا» وكان أزيزها صاخباً أفزع المسيحيين الذين سارعوا إلى الكنائس للصلاة .. كانت الحرب والطائرات فى إعتقادهم نوعاً من السخط الإلهى لا ينفع فيه شئ سوى مزيد من الصلاة تجنباً لسخط الإله بينما أغلق آخرون أبوابهم ونوافذهم إنتظاراً لنهاية العالم .

كان الأطفال يقفزون فى الحقول والشوارع متطلعين إلى الطائرة المعجزة إلى أن تختفى تماماًوهم يهتفون ويلوحون لها .

أعلنت الأخبار ذات صباح أن سفينة بكامل طاقمها تحطمت فى ميناء لاجوس وكان الإنفجار ضخماً إهتزت له الجزيرة كلها فتناثرت الشبابيك وتساقطت الأسقف .. كانت البحيرة مشتعلة باللهب وعلى حافتها إحتشد أهل لاجوس مذعورين ومتعجبين من تلك الحرائق الضخمة المتأججة فوق سطح المياه .. أوه .. ها هو هتلر قد جاء لقد إقترب هتلر ولم يعد بمقدور أحد معرفة ما يفعل لكن (بأاداتان) كان يقضى اليوم كله منذ الصباح أمام دكان المسيحية المتوحشة حاملاً السيف القصير فى الجراب المتدلى من خصره مع الحجاب وكانت السكين فوق كوع ذراعه الأيسر وسلك دائرى وحلقات نحاسية

بين أصابعه .

كانت الأحجية والتعاويذ داخل الجراب تؤكد له أن أى رصاصة قادمة فى إتجاهه لابد وأن تنعكس بعيدة عنه عائدة إلى الذى أطلقها عليه .. إنه بطل "أداتان" الخالد الذى إذا صفع الخصم بإحدى يديه فلابد أن يقع على الأرض فاقداً الوعى وكان يدخر يده الأخرى للمواقف المفاجئة .

كان (باأداتان) مكلفاً بحراسة منطقة «آفين» وأصبح ثائراً بشدة لأنهم لم يأخذوه إلى الجيش كى يواجه هتلر ويعمل على إنهاء الحرب مرة واحدة وإلى الأبد .

* آهـ .. ماما (وول) .. هذا الشعب الإنجليزى الشاحب اللون .. هل ترين .. ها هو هتلر يهاجمنا فى لاجوس وأولئك الإنجليز لا يدافعون عنا .

صمت (باأداتان) برهة ثم راح يبصق بعصير الكولا على الإرض فى غيظ وهو يستطرد : ماما .. سأكون جثة بجوار حائط قصر «ديس» بينما سيقولون: (هناك يوجد رجل أسود) .

ظل يفتش بإهتمام فى جيوب ملابسه ثم قال لأمى : أوه .. ماما(وول) ..نسيت أن أحضر كيس نقودى .. إنظرى .. رجل كبير مثلى ينسى نقوده فى المنزل

سحب (باأداتان) سيفه ورسم خطاً على الإرض أمام الدكان وقال : إذا حاولوا إجتياز هذا الخط فإن البنادق سوف تنسفهم .

تعقبته ذات مرة بينما كان ذاهبا لتناول إفطاره وكانت بائعة الطعام تعرف ما يريد فوضعت أمامه أربعة من أوراق الإيبا الكبيرة الملفوفة وبعضاً من الخضار وقطعة لحم واحدة كانت تبدو وسط الخضار كأنها غارقة فى محيط .. ترك قطعة اللحم دون أن يلمسها حتى إلتهم كمية الأيبا الضخمة التى كانت اللقمة الواحدة منها أكبر كثيراً من أى شئ أستطيع تناوله فى وجبة واحدة.

تلعثم (باأداتان) وتنحنح لكن المرأة لم تهتم

* هاآآم .. (إ يا وو)

* هدوء .

* (أ يا وو)

قالت بائعة الطعام بغضب : أتريد أن تخرب بيتى .. كل يوم تفعل نفس الشئ .. إذا فعل كل واحد مثلك فكيف أستطيع العيش.

* أوه .. (إياوو) .. أنا لا أقصد مضايقتك .

إعتدلت فى جلستها من فوق الكرسى وملأت المغرفة التى صبت محتوياتها فى طبقه وقالت : لكى لا تشكو . هكذا كل يوم .. نفس الشئ .

* باركك الله .. باركك الله .. إنه هتلر إبن (... ... ...) .. بعد إنتهاء الحرب سوف ترين .. ستعرفيننى رجلاً كما يجب .

كانت المرأةمعتادة على سماع تلك الوعود فلم تقل شيئاً وانصرفت إلى

شئونها بينما راح (بأداتان) يلتهم بقية الإيبا ويقذف بقطعة اللحم إلى فمه مثل الكلب الذى يهجم على اللحم وسط كومة من القمامة وكانت عضلات رقبته وفكه مشدودة وبارزة وهو يمضغ اللحم ويضرب فوق المائدة المنخفضة قائلاً بنوع من التحدي : دعيه يأتي .. فليخطو أى خطوة بالقرب من قصر «آلاك» حتى أحطم رأسه وأضربه ضرباً شديداً .

نهض من مكانه وهو يسوى من ربطة الحبل حول البنطلون وقال : إذا جاء رجل من رجال هتلر بالقرب منك فلتخبريه أن (بأداتان) هو الذى يتحدث .

ثم رفع رأسه إلى أعلى فارداً قامته وصدره إلى الأمام وراح يستأنف دوريته .

- توقفت سيارة مسلحة كبيرة في الطريق ذات يوم أمام صف المحلات الذى يوجد به محلنا فتفرق الأطفال والنساء فى كل الإتجاهات وتملكهم الذعر .. تقهقر الرجال وراحوا ينظرون من خلال أبواب دكاكينهم وهم متأهبو ن للجرى أوالتوسل من أجل حياتهم .. لم يكن أولئك الجنود هم الذين يقيمون فى معسكرات "لاڤينوا" لكنهم كانوا من "البوت" سيئوا السمعة وكان من اليسير التعرف عليهم من الكابات فوق رءوسهم ... قالوا أنهم جاءوا من الكونجو وأنهم متوحشون يأخذون ما يحتاجونه من المحال التجارية دون أن يدفعوا شيئا ويغتصبون النساء والأطفال وكانت دعوة الرجل بأنه «بوت» تعد إهانة كبيرة كما كان إنتظارهم دون الجرى منهم يعد حماقة هائلة .

كنت فى الدكان مع المسيحية المتوحشة التى لم تهتم بأولئك الجنود ولا

بالسمعة السيئة التى يتصفون بها ولم تفعل مثلما حدث مع بقية المحال المجاورة التى أغلقت أبوابها وفر أصحابها هاربين .

طلبوا شراء البسكوت والسجائر والطعام المجفف وعلب الحلوى والمشروبات فتسلقت الأرفف لإحضار العلب وإعطائها لأمى لكننى فجأة سمعت صوتاً كزئير الأسد .

كان (باأداتان) بين الفراغ الذى يتوسط رءوس الجنود والباب الفسيح وكان عارياً حتى خصره والبنطلون مشدوداً ومربوطاً فى حزامه أما وجهه فكانت تكسوه تعبيرات الموت .. أمسكت بيدى السيف و Sere* باليد الأخرى وأزحتهم فى حركة دائرية إلى حيث كان يتمتم .

حدّق الجنود فى بعضهم البعض وكانت المسيحية المتوحشة تستمع وقد تعرفت على سبب الإضطراب غير أنها لم تهتم بينما راح (باأداتان) يلعنهم قائلاً : أولاد الكلب .. كذابون .. حيوانات .. بهائم .. بدون وطن .لم يفهم الجنود أى كلمة وكانوا يتهامسون بلغتهم الغريبة وهم يرفعون حواجبهم ويهزون أكتافهم ثم عادوا يواصلون شراء حاجياتهم ... كانوا ثلاثة منهم أو أربعة يجلسون فوق الرصيف المواجه للدكان يراقبون وبقيتهم يحتشدون أمام الدكان فلم تستطع المسيحية المتوحشة أن ترى (باأداتان) فأصابها القلق وسألتنى عما يحدث .

قلت : إنه يرقص الآن .

* Sere : زجاجة صغيرة ذات قوة سحرية . (المترجم)

كان يرقص رقصة الحرب ويغنى بأعلى صوته :

Ogun Hitila b' AKE

Eni La o pa Bote *

ظل بعض الجنود يراقبونه بينما كان البعض الآخر يواصل الشراء فانتهزت أمى الفرصة وضاعفت السعر لكنهم لم يبالوا وقدموا لى علبة بسكوت رقيقة وحلوة .. كنا نتحدث بلغة الإشارات ونبتسم ونحن نهز أكتافنا أو نلوح بأيادينا ولم نجد أى متاعب فى التعامل معهم حتى بدأوا فى الرحيل وعندئذ توقف (بأداتان) عن الغناء ورسم خطأ على الأرض متحدياً إياهم أن يتخطوه .. قفز مندفعاً بوحشية نحو الخط رافعاً سيفه ثم توقف فجأة فوق أحد نقاط الخط بقدم واحدة وهو يدور بجسده حتى يعود إلى النقطة التى بدأ منها .. كرر تلك الحركة مرات ومرات فارتبك الجنود ولم يعرفوا ما يجب أن يفعلوه مع هذا الرجل .

قبل أن يطيلوا التفكير إندفعت المسيحية المتوحشة من مكانها وقالت باحتجاج : كفى يا .. كفى .. إنهم أصدقاؤنا وأنت تعوقهم الآن عن الذهاب لمحاربة هتلر .

أجاب (بأداتان) : إنهم "بوت" ..إنهم وهتلر نفس الشئ .. إنظرى إليهم

* حرب هتلر تصل إلى آكية .

واليوم سوف نقتل هؤلاء البوت .

.. إنهم جبناء .

ثم رفع Sere فى وجوههم قائلاً : ضعوا هذه البضائع على الأرض وسأعطيكم رسالة إلى هتلر .

زحف إثنان من الجنود خلفه وقيدا ذراعيه بعد أن جرداه من السيف وألSere لكنه ظل يقاوم بشراسة ولم يكن من السهل الإمساك به فجلس الجنود يلتقطون أنفاسهم ويمسحون العرق المتدفق من أثر المقاومة وهم يلعنون لغتهم الغريبة ثم أحضروا بعض الحبال وقيدوه بها لكنه لم يستسلم .. وقفوا على شكل دائرة يمسحون العرق دون أن يتوقفوا عن التطلع إليه وإلى تلك الوجوه التى ظهرت واحداً تلو الآخر من الدكاكين والنوافذ والأركان والمخابئ .. أصابتهم الدهشة مما يشاهدون ومن المقاومة الشرسة ل(باأداتان) ولم يستطيعوا التحدث إليهم غير أن بعضاً منهم كان يومئ برأسه فى حزم

كان (باأداتان) مقيداً يحاول أن يجلس بطريقة مناسبة حين رمق أحدهم وهو يهز رأسه .

قال شخص ما : ياله من مسكين .. إن مجد "إيجبالاند" يرقد فى الأرض غارقاً فى التراب .

إندفع بعض «الأوجبونى» قادمين من القصر بعد سماعهم بالحادث وببعض الإشارات والإيماءات نسبوا مسئولية ماحدث إلى أنفسهم ثم قدموا

إلى (بأداتان) سيفه وأل_ ..Sere وقفزوا إلى عرباتهم فراح الجميع يتساءل : هل سيستدعونه فى البوليس ؟ هل من الصواب أن نفك (بأداتان) من قيده ؟ هل سيلقون به فى مستشفى الأمراض العقلية فى « آرو » ؟

أغلقت المسيحية المتوحشة دكانها وهى تنادينى كى نفك الحبال عن جسد (بأداتان) وعندما شرعنا فى فكه علت بعض الأصوات صارخة من الفزع ولم يوافقوا على ما نفعل لكننا كنا نواصل عملنا دون أن نهتم بصيحاتهم فحاول أحد الرجال أن يمنع المسيحية المتوحشة التى إنتصبت واقفة وشدت جسدها إلى نهايته وقامت بتحذيره من أن يلمسها مرة أخرى .

وقفت بدورى إلى جانبها منتصباً وأنا أسخر من الرجل وكنت أعرف لو أننى سخرت منه فى ظروف أخرى لكانت صفعتنى أمى بشدة فوق وجهى لكنها فى هذه المرة لم تفعل ثم تدخل رئيس «الاجبونى» وكلف الرجل بفك الحبل ليصبح (بأداتان) حراً .

نهض (بأداتان) ببطء فتقهقر الجميع عدة خطوات إلى الوراء .. تناول السيف ووضعه فى الجراب ثم قذف بالـ Sere إلى الأرض فأحدثت إنفجاراً هائلاً أفزع المشاهدين وراح يبتعد عن المكان وهو يمشى بكبرياء لكن وجهه كان حزيناً .. كان متجهاً صوب « إيبورو» ثم إختفى شيئاً فشيئاً وتلاشى عن الأنظار .

..............لم أشاهد (بأداتان) بعد ذلك أبداً .

– كان لابد للأم أن تفعل شيئاً حيال شرور إسحق المتصاعد فإختارت أن

تبقى فى دكانها معظم الوقت هرباً من إسحق الشارد وكانت تلك فرصة مناسبة يحتمى فيها بأصدقائه .. كانت قبل أن تذهب إلى الدكان تتأكد من إعداد إفطار زوجها من «الأكارا» و«الأوجى» والخبز والبيض والشاى أو البطاطا المغلية والبيض أو شوربة السمك فوق المائدة لكنها نادراً ما كانت تقوم بإعداد طعام « ليكى» الشهى والمصنوع من قشرة الخبز والفول وبذرة البطيخ لأن ملعقة واحدة منه كانت كافية لنشوب النزاع بين أفراد العائلة .

إنضم الشاب (مايسلف) إلى أفراد العائلة حيث ظهر فجأة من حيث لا ندرى وأصبح يشاركنا حياتنا ثم إختفى فجأة أيضاً دون تفسير من أحد .. كنت أراقبه . من بين الأرجل متطلعاً إلى طبقه الذى يكون عادة فارغاً .. تعودنا جميعاً على لهجته الفريدة وأصبح مصدر تسلية لنا وعندما كان يرانى أنظر من بين أقدام الولد الطويل إلى حركات فكه كان الخوف ينتابه خاصة لو كان الطبق محتوياً على طعام (ليكى) .

كانت (تينى) وأنا وأولاد العم و(ديبو) نتسابق لنيل شرف إفزاعه بسؤالنا المعتاد : هل تناولت إفطارك ؟

كان قصيراً وذا بشرة مضيئة يجلس فوق الكرسى تحت ساعة الحائط فى الحجرة الأمامية وهو يقرأ فى مجلة أو كتاب فى إنتظار عودة إسحق من المدرسة لتناول إفطاره وعندما تكون أمى خارج المدينة كان يصل مبكراً عن العادة أثناء قيام أبى بتدريباته فى الحجرة وكنا نخفى ضحكاتنا عن الناظر لمعرفتنا بعاقبة الضحك على الضيف لكننا بعد ذلك بالطبع كنا نقلد الضيف على الملأ .

كان أبى عند خروجه من حجرة نومه أو إنتهائه من الحمام أو بعد تجواله فى الحديقة وأحيانا بعد عودته من المدرسة يتقدم نحو الضيف ويقدم له التحيات بلطف ورقة ثم يذهب لشئونه أما فى وقت الأجازات فكان الوقت كافياً كى يجلس وقتاً طويلاً فوق مكتبه فى الحجرة الأمامية لإنهاء بعض الأعمال قبل أن ينهض للافطار الذى يصبح بارداً وفى كثير من الأحيان كان يتبادل الحديث مع ضيفه بهدوء وهم يتحاورون فى أمور السياسة اليومية ويتناقلون الأخبار والإشاعات عن الحرب وبعض التحركات المحلية بينما نكون نحن فى إنتظارهم نحس ملل الإنتظار فيذهب أحدنا لإخبار إسحق أن إفطاره جاهز أو لسؤاله إذا كان يريد إعادة تسخين الـ «أوجى» أو الفول وعندئذ كان يتوجه إلى ضيفه بالسؤال : هل تناولت إفطارك ؟ فيرفع (مايسلف) وجهه من الجريدة التى يشغل نفسه بها وينظر إلى أعلى فى خوف متطلعاً إلى أى اتجاه ماعدا الإتجاه الصادر منه السؤال ثم يتجه إلى إسحق متسائلاً إذا كان السؤال موجهاً إليه راسماً على وجهه علامات الدهشة وهو يجيب : أوه .. أنت تعنى (مايسلف) ؟كانت إجابته متقطعة وغير واضحة رغم كل المبالغة التى حاول بها نطق الحروف وكانت كلماته مثل مواء قطتنا مما جعلنا نضحك كثيراً ونحن نداری وجوهنا فى مساند الكراسى التى نختفى وراءها .

وقف إسحق متأملاً إياه وسار كلاهما بوقار إلى حجرة الطعام ثم جلسوا بتأنق واحترام فوق المائدة فكان ذلك شيئاً سيئاً بالنسبة لشهيتنا المفتوحة .

{أنت تعنى (مايسلف)} .. ظللنا نضحك لهذه العبارة كثيراً كلما تذكرناها

من حين لآخر وكانت المسيحية المتوحشة تقابله فى جولاتها الشرائية خارج المدينة وظلت ملامحه عالقة بأذهاننا وكثيراً ما كنا نقلده فنتحدث مثلما كان يتحدث أو نأكل ونقرأ الجديدة مثلما كان يفعل حتى أن أمى كانت تستدعى إسحق لرؤيتنا ولم تعد تهتم بما نفعل فإن لحظات من القلق والإنزعاج كانت تنتابها من ذلك الروتين اليومى ..

قالت ذات يوم أثناء وجبة العشاء : هل كان طعام « ليكى» جيداً هذا الصباح ؟

كان الضيف فى ذلك الصباح قد إلتهم «ليكى» عن آخره

قال إسحق : أوه .. هل يوجد «ليكى» اليوم ؟ فلتجهزوا شيئاً لأننى سأعود للمدرسة حالاً .

تظاهرت ماما بالدهشة قائلة : يالهم من أغبياء .. إن طعام «ليكى» موجود طوال الوقت .

وقالت لجوزيف : أين الإفطار الذى أعددته لوالدك ؟ إننى لا أراه فوق المائدة .. أين هو ؟

ظل الوالد يتمتم فقالت (نوبى) : لقد وضعناه فوق المائدة ياماما لكن ضيف بابا تناوله عن آخره

أدارت عينيها فى كل الاتجاهات وقالت : أوه .. سأقوم بتجهيز المزيد .

• لا بأس .. إننى لست جائعاً .. عندما أعود .. عندما أعود .

ثم ذهب إلى المدرسة وأثناء العشاء إستطردت المسيحية المتوحشة قائلة : من هو ياعزيزتى ؟ .. هل أعرفه ؟

• أوه عزيزتى .. صديق قديم أشك أنك شاهدته من قبل .

هزت رأسها قائلة : لابد أنه صديق غريب جداً .. هل تعرف ماذا يعنى أن يأكل الصديق إفطارك كله دون أن يترك شيئاً ؟

هز إسحق كتفيه : لقد أعد الأولاد لى طعاماً آخر .. لايهم .

كانت المسيحية المتوحشة تتمتع بقدر كبير من الذكاء والمكر والحيلة فتعمدت تأجيل المناقشة فى ذلك الموضوع بعد أن أبدت ملاحظة واحدة ورأت أن تتوقف حتى تكون مستعدة للكلام عن ذلك الصديق الطائش الذى أصبح شيئاً أساسياً فى حياتنا أثناء أجازة نصف العام .. كانت الأمطار المستمرة على مدى إسبوعين دون توقف قد ساعدته فى البقاء طوال اليوم بالإضافة إلى عدم رغبته فى المغادرة .

تعلمنا من وجود (مايسلف) الشراهة والنهم وأثناء وجوده كانت المسيحية المتوحشة تشفق على إسحق من قلة أكله وكثرة الإحتفاء بأصدقائه وضيوفه حتى حدقت فيه ذات يوم وقالت له : ولكن ياعزيزى هل تتعاطى كفايتك من الطعام ؟

• طبعاً .. هل أبدو جائعاً ؟

• لا .. ولكن .. أريد أن أصنع لك غداً فتة البطاطا التى تحبها .. مارأيك ياعزيزى ؟

• أى نوع من الطعام ذلك الذى تتحدثين عنه ؟

• ذلك الذى يصنع من الأورو وطبعاً سوف أستخدم لحم الخنزير المشوى الذى أرسله لنا الأب من «إيسارا» .

• أوه .. نعم .. نعم .

• أريد التأكد من أنك تتعاطى كفايتك من الطعام .

• طبعاً .. ولم لا ؟ .. إننى موجود غداً ولن أذهب إلى أى مكان .. إذن هى فكرة طيبة .

ساد السكون فترة قصيرة ثم تحركت بجوارة قائلة : وهل تتوقع أحداً من الزائرين غداً على الغذاء ؟

قال لها : لا .. لا .. ولكن ربما يأتى السيد (أديلو) .. لا .. لا أتوقع أحداً .

• حسناً لكن إذا حضر أحد وقت الغذاء فعليك أن ترسل أحداً لإستدعائى من الدكان .. أعنى أنه يمكنك تأجيل هذا الطعام إلى المساء إذا جاء أحد فلقد صنعته خصيصاً ثم إنه خنزير الأب المشوى من «إيسارا» .

• نعم .. أفهم تماماً .. كما تحبين .

فور وصول (مايسلف) أسرعت (نوبى) بتنفيذ خطتها المتفق عليها مع

المسيحية المتوحشة فراحت تخبرها بوصوله وبقت مكانها فى الدكان .. كنا فى ذلك اليوم ننتظر بشغف فى الحجرة الأمامية متظاهرين بالمذاكرة دون أن نقلب صفحة واحدة من الكتاب حتى جاءت أمى فقفز (مايسلف) من فوق الكرسى وانحنى يقبل يديها بلطف مبالغ فيه ثم قال : صباح الخير مدام .

بادلته إبتسامة صغيرة كنوع من المجاملة بينما كان إسحق فى الجانب الآخر من المائدة يخنق إبتسامته وقد كان يعرف ما يتعلق بالخطة دون أن يخبره أحد كما عرفنا بالتخمين أنه سيترك الأمور تسير فى مجراها الطبيعى .

قالت أمى : فكرت أن أحضر وأرى طعامك بنفسى خوفاً من أولئك الأولاد الذين لا يتورعون عن إلتهام كل شئ فلا تجد هذا الطعام الطيب والمصنوع خصيصاً لك .

- ولكن .. الدكان ؟

- أوه .. لا تقلق .. (نوبى) هناك تقوم بعملها كما أن المطر اليوم غزير والشراء متوقف .

ظل وجه (مايسلف) مدفوناً فى الكتاب ورحنا نتهامس من تحت المائدة : ماذا تنوى أن تفعل ؟ .. وما هى خطتها ؟

تسللت إلى أنوفنا رائحة الطعام وكنا نشك كثيراً فى تذوق هذا الطعام .. إنحنت رءوسنا إلى أسفل متطلعين إلى الرجل المسكين ثم سمعنا صوتاً ينادى

من المطبخ : (وول) .. وول ل ل .

ضربنى أحدهم بكوعه كى ينبهنى وقالوا جميعاً : إنه أنت .. ألا تسمع؟

• نعم .. ماما .

• إذهب وإسأل الرجل اللطيف هل يفضل كوباً من الزنجبيل أم عصير البرتقال ؟

فعلت ما أمرتنى به وكانت دهشته عظيمة حين قال : (مايسلف) ؟ .. أوه .. لا يهم .. أى شئ .. شكراً .

إختارت المسيحية المتوحشة بنفسها وناولتنى الصينية ثم تبعتنى .. كان (مايسلف) متوتراً وأنا أضع الصينية أمامه فوق المائدة .

قال (مايسلف) : أوه مدام .. كرم منك ياسيدتى .. كرم شديد وعليك أن تساعدينى فى التوجه بالشكر إلى الناظر أيضاً .. إن السيد (سوينكا) مضياف كبير ورجل لطيف إلى أبعد حد .

• أوه .. ولكننى يجب .. يجب .. إنها روح طيبة جداً وشئ نادر جداً .

تبادلت معه الحديث لمدة خمس دقائق بسرور وإبتهاج ثم قاطعته : أتمنى أن تلتمس له العذر لفترة قصيرة .

• طبعاً مدام .. طبعاً .

• إن عليه اليوم أن يناقش بعض المسائل العائلية الهامة .

• أوووه .. أووه .

إبتسمت قائلة : مشاكل عائلية .

ثم قالت لإسحق : عزيزى .. أعرف أنك مشغول اليوم لكننا نستطيع مناقشة بعض الأمور أثناء الغذاء .

عدت إلى مقعدى وراح إبن عمى يكتب فى كراسته $\frac{١٠}{١٠}$.. كانت هى درجة إتقانها للدور فوافقنا جميعاً على تلك الدرجة فقدم (مايسلف) مزيداً من الشكر وأثنى على كرم الضيافة الذى لاقاه ثم إختفى من حياتنا تماماً وأصبح المنزل فقيراً بغيابه .

– شاهدنا رجلاً يرتدى زى الضباط وهو يدخل المنزل دون أن يعلن عن وجوده فسارعنا بالفرار .. ها هو هتلر يأتى إلينا وسوف ينقلنا جميعاً فوق ظهر السفينة ويحولنا إلى عبيد .. كان إسحق مسافراً خارج المدينة والمسيحية المتوحشة فى دكانها ولم نكن قد علمنا بقدوم زائر جديد .. هربنا جميعاً إلى الفناء الخلفى واختبأ بعضنا فى المخزن والبعض الآخر فى المرحاض وتسلقت أنا وإثنان من أبناء العم السلم وألقينا بأنفسنا فوق السطح إستعداداً للنزول إلى الشارع من الناحية الأخرى إذا تعقبنا هتلر فوق السطح .. ظللنا هكذا لا نفعل شيئاً سوى أننا زحفنا على بطوننا إلى الجانب الآخر من السطح حتى نتمكن من رؤية الفناء .

ظل الرجل الغريب فى مكانه دون أن يتعقبنا وبدا كأنه يلوح لشئ ما وكانت عيناه متوقدتين ووجهه متأججاً فبدأت أغير إنطباعى عنه إذ لم يكن

مظهره يوحى بالعنف لكننى فكرت قائلاً : ربما يكون شبحاً !!

رفع رأسه وتقدم إلى الأمام وإلى الخلف ثم قال بصوت عالٍ : أين هؤلاء الأوغاد ؟

تقدم الرجل الغريب للأمام وكانت الحجرات خالية من الجميع .. كنا قد رأينا بعض السكارى من قبل فعرفنا أنه مخمور بما فيه الكفاية حتى لو كان هو هتلر أو شبح أو الشر نفسه .

تحرك مرة أخرى للأمام فى إتجاه الفناء وكانت عيناه تحدقان فى أحد أوانى المياه الضخمة الخاصة بنا والتى كانت مدفونة فى الأرض .. كان الإناء المفضل فى البيت محاطاً بالكروتون الفخم من جانبيه وكانت مياه ذلك الإناء مثلجة وطازجة فى أى وقت من النهار .. إتجه الغريب ناحيته ثم مال وهو يفك أزراره وراح يبول فيه .

صرخت بأعلى صوتى ونزلنا السلم بنفس السرعة التى تسلقناها به ونحن نتوجه إليه بالشتائم ثم رحنا نشده بكل قوتنا لكنه ضربنا بيده بسهوله وهو يقول : إبتعدوا عن طريقى .

قفزت فوق ظهره بقوة جعلته ينحنى للأمام وضربته بغطاء إناء الماء الذى كان مليئاً إلى نصفه ثم قفزت فوق رأسه بنفس الحركة فوقعت فوق كومة من التراب ووجدت نفسى محصوراً بين الإناء والحائط لكن أولاد العم أمسكوا به من أحد قدميه وجرجروه إلى الخلف طالبين المساعدة .

ظهر بقية الأطفال من مخابئهم فى نفس اللحظة التى جاء فيها فشاهدوا الرجل بزيه الرسمى منبطحاً فوق إناء الماء .

زحفت من موقعى وصرخت بأعلى صوتى : إنه هتلر .. هتلر يبول فى الإناء !!

لكن هتلر لم يتحرك من مكانه وظل ساكناً حتى إقترب الجيران وأحاطوا به .

كان شخص ما قد إستدعى ماما التى جاءت من الدكان وتعرفت بسرعة على الغريب ثم صاحت : كنت أعتقد أنه مازال فى بورما .

ساعده الجيران فى الذهاب إلى السرير وكان ينظر إلينا بحب .

سألنا المسيحية المتوحشة أثناء العشاء عن ذلك الغريب فهزت رأسها ورفضت فى البداية أن تجيب على تساؤلاتنا حتى قالت : إنه عمكم .. كان دائما يبدو متوحشاً وقد تمرد على العائلة منذ زمن بعيد فذهب وتطوع فى الجيش .

كان العم (ديبو) فى الصباح نظيفاً ومتأنقاً يرتدى ثياباً حضارية وكان يتناول إفطاره وهو جالس فوق مقعد إسحق وبعد عودتنا من المدرسة كان العم قد ذهب .

توجهنا بأسئلة كثيرة إلى أمى لكنها لم تقل شيئاً سوى أنه ذهب إلى موقع جديد .

تم تنظيف إناء الماء بالديتول لكن أحداً لم يستخدمه لعدة أيام إلى أن قاموا بتنظيفه مرة أخرى من الداخل والخارج بالصابون ووضعوه فى مكانه لكننى لم أعد أشرب منه بعد ذلك دون إحساس بالقرف .

- كان أخى الصغير (ديبو) لا يتوقف عن شقاوته ولا يخاف شيئاً وذات يوم إختفى (ديبو) مدة طويلة .. كانوا فى المنزل يتوقعون وجوده فى الدكان ولم تكن المسيحية المتوحشة تشك فى وجوده بالمنزل .

إختفى (ديبو) بعد الإفطار مباشرة بعد أن تلقى بعض الضربات والإهانات من بابا فاضطرب أهل المنزل حتى جاء به أحد المسافرين .. كان (ديبو) يهيم على وجهه طوال النهار متجولاً فى «أبيوكوتا» حتى قادته قدماه إلى الجراج وعندما حاول أن يصعد اللورى لاحظه السائق والمسافرون واستجوبه رجل البوليس الذى تركه عند أقرب دكان حتى جاء به مسافر لطيف إلى المنزل .

لم نعرف شيئاً عما فعله إسحق وماما بشأن تلك المغامرة .. أصبح (ديبو) بطلاً ولم يكن خائفاً عند عودته حتى أننى أنا الذى خفت منه لأن أحداً لا يستطيع أن يقامر بمثل هذه المغامرة دون أن يصاب بالذعر .. تعجبت من ماما وإسحق لأنهما لم يستخدما العصا لمثل تلك المعصية التى إرتكبها (ديبو).

كان (ديبو) فى اليوم التالى يقفز ويلهو بحرية كاملة وكأن شيئاً لم يحدث أبداً ولم تكن تصرفاته توحى بأى شئ من مغامرة الأمس فصرنا ننظر إليه

كشخص متميز ومختلف عنا .

بعد عام تقريباً من زيارة العم الغامض أعلنت المسيحية المتوحشة عن تغيير إسم (ديبو) إلى (فيمى) وقالت : إننى أفكر فى تغيير إسمه منذ زمان لأن الأطفال الذين يحملون إسم (ديبو) يصبحون متوحشين .

لم نهتم لتغيير الإسم غير أننى أخفيت دهشتى وفكرت قائلاً : إن أولئك الكبار لا يعرفون أبداً ما يريدون .

كان العم (ديبو) أحد الزائرين الذى إخترقوا حياتنا ذات يوم ولست أدرى لماذا كانت المسيحية المتوحشة متحفظة وهادئة بشأن ذلك العم الذى رحل ولم نشاهده مرة ثانية ..

كان العم (ديبو) قد أمضى معنا ليلة واحدة فقط .

كان العم (ديبو) كالمفاجأة .. كالزوبعة .

(٩)

ـ كنا نحن أبناء الناظر نقـوم فى ليلة رأس السنة بزيارة ذوى الشـأن ودائمـاً كان شـخص ما برفـقتنا للعمل على رعـايتنا وكنا نلتقى فى الطريق بالأقرباء وأصدقاء العائلة وبعض كبار «إيسارا» من الرؤسـاء ومساعدى الملك والقساوسة وكان معروفاً فى «إيسارا» أن أبناء الناظر وأطفاله لا ينحنون عند تقديم التحية .

قال أحد الرجال معلناً عن وجودنا : (أطفال آيو)

وبعد أن سمعنا إسم إسحق أصبحنا جميعاً فى مكان واحد وقال أكبرنا : (أطفال آيو) جاءوا للإحتفال بـ .. (أوبون) .

ثم إستطرد : إنهم لا يجيدون الإنحناء وتقديم التحية .. معذرة سادتى أرجوكم ألا تنزعجوا وألا تسيئوا إليهم .

كانت ردود الأفعال مختلفة فأحس بعضهم بالفزع لكون ذلك ضد تقاليدهم وعبروا عن إستنكارهم أما البعض الآخر وخاصة أولئك القدامى الذين يرتدون (١) * etù الأسود فقد انتصبوا واقفين ومضوا يتمتمون وكان بينهم (أوديمو) الرجل الكبير فى «إيسارا» .

(١) ملابس محلية من النسيج ذات قيمة كبيرة .

بعد الإنتهاء من صلاة أحد أيام الآحاد فى الكنيسة ذهبت أنا وإسحق مباشرة إلى قصر (أوديمو) حيث كان عدد من المسئولين يجلسون فى الردهة .. تفحصت وجوههم بعض الوقت فلم أكن قد رأيت أحداً منهم من قبل وبخاصة ذلك الرجل الموشح بالخرز والمرجان الغريب الذى لا يوجد فى «إيسارا» .. كان يتحدث إليهم بكبرياء وكأنه (أوديمو) .

رفعنى (أوديمو) فوق ركبته قائلاً :(١) * A-ah OmO Soyinka, Wa nube wa gobwo وراح يسألنى أسئلة كثيرة عن المدرسة فانطلقت منى الصرخات ثم أمسكنى (كابينزى) ووضعنى على الأرض .. صافحت الحاضرين وكان بينهم رجل طويل ذو ملامح ملكية واقفاً إلى جوار الدولاب يلوح فوق وجهه بالمروحه فى كسل .. إقتربت منه فنظر إلى بغرور وأعلن بصوت صارخ : ماهذا ؟ (٢)* OmO

أصابنى الخوف فتقهقرت إلى الوراء بينما أجاب كثيرون بصوت عال : إنه إبن سوينكا

وكانوا يشيرون إلى أبى المشغول فى حديث خاص مع (أوديمو) قائلين للرجل الطويل : إنهم أطفال الناظر الذين لا يجيدون الانحناء !!

إشتعلت عينا الغريب وتلألأتا .. حدّق فى إسحق والمسئولين والرؤساء ولاحق (أوديمو) بنظراته ثم قال صارخاً وهو يفحصنى : ولم لا ؟

---

(١) آهـ .. إبن سوينكا .. تعال وصافحنى .

(٢) طفل مَنْ هذا ؟

كان صوته مدوياً وكان الرعب يتملكنى لمجرد وجوده .. شعرت بغيظ وإستياء شديدين لوجوده فى ذلك المكان خاصة وأن نظراته لإسحق كانت مليئة بالعداء وكانت هى المرة الأولى التى أمرنى فيها أحد بالإنحناء .. إن تقديم التحية بالإنحناء فى طرق «إيسارا» المكدسة بالأتربة الحمراء ومخلفات الكلاب وبراز الأطفال يبدو شيئاً قذراً .. لا .. لن أفعل رغم إدراكى بوجوب ذلك على الأقل لأبى أو لأوديمو أو بعض الكبار الموجودين فى ضيافته .

لا .. لن أنحنى لذلك الغريب المتعجرف حتى لو أصاب إسحق أو المسيحية المتوحشة مس من الجنون وأجبرانى على ذلك فإننى أيضاً لن أفعل .

كان قدومنا المباشر من الصلاة فى الكنيسة هو ماجعلنى أفكر بما يدور فى رأسى ولم يكن ثمة تبرير قد فكرت فيه من قبل وإنما فقط كنت أستمع لنفسى : (إذا كنت لم أقدم الإنحناء إلى الله فلماذا إذن يجب أن أنحنى لذلك الغريب)؟!

ساد الهدوء فترة طويلة .. ذلك الهدوء الذى لم أتعوده فى مجالس الكبار ثم ما لبث (أوديمو) أن كسر الهدوء والصمت بإطلاق صفارة توحى بالدهشة قائلاً : أوه .. أو .. أو .. و .. و .. وبابا أو !!

ثم قال لإسحق : Emi su wo re ko?*

هز أبى رأسه وأشار بيديه علامة النفى لكن صوت (أوديمو) جعلنى أنظر إليه ثم إلى تلك الوجوه المصابة بالدهشة وفجأة أصابنى الإضطراب

(١) باسم أجدادنا .. هل أنت الذى علمه هذا ؟

فتسللت من الحجرة وجريت طوال الطريق إلى المنزل .

بعد ذلك الحدث أصدر إسحق أمراً بوجوب الإنحناء ليس فقط فى «إيسارا» وإنما أيضاً فى «آكية» وفى منزلنا .

- كان (أوديمو) بالنسبة لنا هو صديق إسحق الأول وكثيراً ما كان يأتى لزيارتنا فى «آكية» ويمكث مدة طويلة كانت تبدو مثيرة ولم يكن إسحق معه يملك وقتاً لمتابعتنا فكنا نمارس كامل حريتنا أما (داودو) فلم يكن يبقى وقتاً طويلاً غير أنه كان يترك إسحق مشتت التفكير .

- كانت النسوة التاجرات اللاتى يحضرن التوابل والمسك من «إيسارا» إلى «آكية» يصلن دائماً فى وقت متأخر من الليل وهن يمشين فى أسراب كالقافلة محملات بسلال مليئة باللحوم المشوية وحقائب من القماش مكدسة بملابس من النسيج والمراهم والدهانات المحلية وزهرة البطاطا وعلب من الصفيح بداخلها زيت النخيل .. كن يصلن عند منتصف الليل ويشعلن النار فى الفناء الخلفى لطهى الطعام وكذا من أجل التدفئة وكانت المسيحية المتوحشة تشترى منهن بعض الأشياء ويسعى إسحق للقائهن لإستلام الرسائل ومعرفة الأخبار .. أصبحت هاتى النسوة جزءاً من أهل المنزل أو هكذا أحسسنا لما يتسمن به من ثقة فى النفس وحرية فى الحركة .

كن يتحدثن مع إسحق بلهجة غريبة كنا نعتبر أنفسنا محظوظين عندما نفهم جملة أو جملتين فلم تكن هى لغة اليوروبا التى يتحدثن بها .. كنا نجيد لغة اليوروبا أما ما كن يتحدثن به فهى لغة جديدة .

فى الفناء كانت النار والليل وثمة أصوات كغناء الأجبونى ذى النغمات السحرية وكان المخزن هو مكان إقامتهن أما فى الطقس الحار فقد كن ينشرن حصائرهن فى الهواء الطلق وينامون حتى موعد رحيلهن عند الفجر قبل أن نستيقظ .. كانت النساء تبيع كل ما يأتين به فتصير السلال والحقائب فارغة سرعان ما يملأنها قبل الرحيل بأنواع أخرى مختلفة من البضائع لبيعها فى «إيسارا» .

ـ كنت أنا وإسحق نحمل حقائبنا وأشياءنا فى الطريق إلى المحطة وركبنا اللورى الذى توقف فى «إيبيرو» التى تبعد عن «إيسارا» سبعة أميال .. إنتظرنا مدة طويلة أن نركب وسيلة مواصلات أخرى ولما لم نجد شيئاً قرر إسحق أن نواصل بقية المسافة سيراً على الأقدام فاقتسمنا الأشياء والحقائب فيما بيننا وبدأنا السير وعندئذ تذكرت النساء اللاتى كن يسافرن عند الفجر بأحمالهن الثقيلة .. آهـ .. لقد عرفت لماذا كن يصلن إلى منزلنا فى منتصف الليل .

قال أبى : أحياناً كن يمشين يومين كاملين ويتوقفن فى قرية بالطريق لقضاء الليل .

فكرت فى المسافة التى قطعناها باللورى فقلت بدهشة : إنهن يمشين كل ذلك الطريق !!

فلم أعد أشعر بالتعب وكان إشتياقى ينمو كلما إقتربنا من منزل النسوة ذوات اللون الأسود اللاتى يقطعن كل ذلك الطريق من أجل البيع والشراء

والتخلص من اللحوم المشوية والملابس النسيجية واللاتى يتحدثن بلغة ذات أنغام حزينة .

كنا على أبواب «إيسارا» حين أشرنا إلى اللورى القادم من بعيد .. كانت سحابة حمراء من التراب تغطى «إيسارا» .. كانت السحابة كبيرة وكأنها تغطى سطح الكرة الأرضية .

إنهم أولئك الباعة المتجولون ضيوفنا الغامضين فى «آكية» الذي إندفعوا لإرشادنا .. ها نحن الآن فى منازلهم وديارهم التى تتكون من أكواخ وعشش طينية بعيدة عن بعضها البعض .. شعرت بالحزن وأصابتنا تلك الديار بالكآبة ورغم معاملتهم اللطيفة معنا إلا أننا أحسسنا بمدى ما يعانون من تخلف .

لم تكن «إيسارا» مكاناً صحياً فالمراحيض عبارة عن حفر فى الأرض وينتشر براز الأطفال فى كل مكان مما يجعل الكلاب تطوف حوله بكثرة لإلتهامه .. كان البراز ينتشر فى كل مكان عن طريق التصاقه بالأقدام أو عجلات الدراجات وعربات اللورى التى تعبر فى المناسبات وكانت أيضاً تلك الأرض غير المزروعة حيث يجلس المراهقون بين الوسخ .

كان التفكير فى المحظورات التى يجب علينا أن نتجنبها كتناول الطعام خارج المنزل أو مصافحة الغرباء بالأيدى قد جعلنى أبقى مع أبى فى منزله المصنوع من الطين .. كان منزلاً نظيفاً ولم تكن تلك النظافة شيئاً غريباً بالنسبة لنا .

تعجبت ذات مرة من تلك القذارة فسألت إسحق : لماذا لا يأتى مفتشو

الصحة إلى هنا كما يهبطون علينا فى «أكية» أحياناً ودون سابق إنذار .. يجب أن يأتوا إلى هنا على الأقل فى الفترة التى نبقى فيها .

نظر إسحق حواليه بغضب وكأنه لم يسمعنى ثم قال فجأة : يجب أن تذكرنى بذلك عند عودتنا .. لا تنسى يا(وول) أن تذكرنى .

كان أبى مشغولاً بأشياء عديدة فلم يستطع الوفاء بوعده أن يأخذنى إلى مزرعته فاقترح على الذهاب إلى (برودا بوبا) لأسأله إصطحابى إلى مزرعته .. تعب (برودا بوبا) كثيراً فى الحصول على موافقة المسيحية المتوحشة لكنها كانت نزهة ممتعة .

كان (برودا بوبا) أحد جيراننا يعمل حلاقاً وكنا نجلس بجوار باب دكانه ننتظر دورنا فى الحلاقة حيث كنا نحس ألما شديدا فى الرأس .. كانت أمى ترسلنا إليه فى أعياد الميلاد والاحتفال بالعام الجديد للإعتناء برءوسنا عناية خاصة .. وافقت المسيحية المتوحشة على أن أذهب إلى مزرعته بعد أن بذل (برودابوبا) مجهوداً كبيراً فى إقناعها .

عند الفجر إنطلقنا نحو مزرعة (برودا بوبا) الذى كان فى إنتظارنا خارج الباب حين صاح : هيا .. سوف أذهب بك إلى المدرسة .

ثم ناولنى الفأس قائلاً : ها هو قلمك وبعد ساعة من السير ستجد الكتاب فى إنتظارك هل أنت مستعد ؟

لم أكن مستعداً أبداً .. قفزت إلى أسفل ووجدت نفسى بينه وبين

(ييمى) .. إمتلأت رئتى بالندى ورطوبة الصباح ولم تكن الأتربة قد سادت بعد .

توقفنا عن السير بعد ساعة كما قال (بروداابوبا) ثم دخلنا إلى الكوخ الصغير بالمزرعة وتناولنا إفطاراً سريعاً قبل الخروج للعمل في الأرض .

كنا نضرب الأرض بالفأس ونجمع الفاكهة فى سلال كبيرة ولم أستطع أن أفهم معنى ذلك اللون الأخضر الذى يغطى المكان .. كانت الأرض تكتسى بالخضرة رغم أنه ليس موسم المطر .. آهـ .. إن الأرض ناعمة وغنية وخضراء

سألت (برودا بوبا) فأجاب شارحاً : إن الجدول الكبير يحيط بالأرض هنا والماء يجرى دون توقف ولقد عبرنا ونحن قادمون أحد الأنهار الصغيرة .

كان (برودا بوبا) يجنح من وقت لآخر إلى السخرية والمرح .

قال : هل ترى العقرب ؟

فخرجت من جلدى من شدة الفزع .. كان بعد الانتهاء من العمل الرئيسى يختفى بين الشجيرات ثم يباغتنى من الخلف ويضع بعض الفروع فوق رقبتى حتى قلت له ذات مرة : حسناً .. إذن لا تغضب لو إعتقدت أنك ثعبان فسارعت بضربك بالفأس .

كان ثعبان واحد قد رأيناه فى ذلك اليوم حين تسلق (ييمى) شجرة الكولا لإحضار بعض البذور المتجمعة فى عناقيد فوق فروع الشجرة ونادى برقة : (برودا) !!

• هل تنادى (بيمى) ؟

ساد الصمت لحظة ثم سمعنا تحركات (بيمى) بين الفروع وكأنه يقوم بعمل سرى مما أصاب (بوبا) بالحيرة والإرتباك فصاح غاضباً : ماذا تفعل؟ .. إن بنور الكولا ليست هناك .

قال (بيمى) المختبئ تماماً بين الفروع : ثعبان .. يوجد ثعبان يلتف ببشاعة حول أحد الفروع حيث توجد بنور الكولا .

نظرت إلى (برودا بوبا) بإرتياع ..

كان قلقاً فقال بصوت عال : (بيمى) .. هل الثعبان يتحرك ؟

• لا .. لايتحرك لكنه يرانى ..

قال (برودا بوبا) ضاحكاً : كان لابد أن يراك .. أتريده أن يراك تتسلق نحوه ثم يتركك وينام ؟ والآن .. إستمع .. عليك بالتحرك بعيداً عن الجذع .. هل تستطيع ؟

أجاب (بيمى) : طبعاً .

ثم راح إلى الإتجاه الآخر من الجذع .

• حسناً .. إستمع لى .. لا تتحرك بظهرك ناحية الجذع وإنما عليك بالنظر إلى أسفل وانتبه للفروع التى تحتك فقد يكون أحدها حفيفاً فيهوى بك.

توقف (بيمى) قليلاً وسمعنا حفيف الأوراق ثم قال : نعم .. يوجد .

• إذن يجب ألا تقفز مرة واحدة وإلا تحطمت رقبتك .. لاتحاول القيام بأى حركة مفاجئة ولكن إهبط ببطء وكأنه لا يوجد ثعبان يراك .

فعل (بيمى) الحيلة المطلوبة وقد أصابه فزع شديد حين وقف فوق غصن هش فاندفع جسده باتجاه الأرض ولحسن حظه فقد سقط فوق قطعة طرية من الأرض ثم رفع رأسه قائلاً : (برودا) .. إنه ضخم .. إنه ثعبان فظيع وهائل .. لا .. إنه ليس ثعباناً على الإطلاق .. أقسم أنه ساحر .. نعم إنه ساحر.

تمتم (برودا بوبا) : أوه .. هو كذلك ؟ هلا أعطيتنى بعض الحجارة ؟ ودعنى أرى مكانه بالتحديد كى ألاحقه بنظراتى .

أشار (بيمى) إلى عنقود بذور الكولا فنظرنا فى إتجاه إشارته وماهى إلا لحظة قصيرة حتى تعرفت عليه .. كان شبيهاً بأحد أغصان الشجرة فيما عدا لونه الأسود ونبضات جسده .

أومأ (برودابوبا) برأسه راضياً : حسناً .. كنت أتساءل عن الشئ الذى سنأكله مع البطاطا فى الغذاء .

إعتقدت إنه يمزح فقلت : إن أحداً لا يأكل الثعابين .

نظر إلىّ وثمة سحر غامض كان يشع من عينيه : آهـ .. لقد نسيت .. أبناء المدرس لا يأكلون مثل هذه الأشياء .. إنهم يأكلون الخبز والزبد .

• لا .. ليس هذا ما نأكله لكن الثعابين لا يأكلها أحد .

• نعم .. سنرى الأن .. إعطنى يا (بيمى) ذلك الفأس وأنت يا إبن المدرس ثبت نظرك على الثعبان .. لاتنس يا (بيمى) أن تجمع بعض الحجارة.

قلت له متسائلاً : لنفرض أنه قفز إلى الأرض !؟

قال : تحدث معه بالإنجليزية .

ثم تركنى وحيداً فرحت أفكر بعمق طوال عشر دقائق فى ذلك الثعبان .. كان ضخماً لا يتحرك يبدو أنه لن يهبط إلى الأرض بسرعة .

هكذا فكرت غير أننى فى الحقيقة لم أكن أعرف طبيعة وعادات الثعابين .. كان الكبار فى «آكية» يقتلون الثعابين التى نقابلها قبل أن أقترب منها لكن الثعابين التى رأيتها لم تكن أبداً فى مثل هذا الحجم .

عندما عاد (برودا بوبا) لم أستطع أن أتأمله .. كان ممسكاً بالثعبان فى هدوء مثل الهدوء الذى حاور به المسيحية المتوحشة حين أقنعها باصطحابى إلى المزرعة .

قال بلهجة آمرة : إعطنى الفأس .

تقدم (بيمى) لإعطائه الفأس لكنه قال : لا .. لا .. دع (وول) يقدمه لى.

كان واقفاً بالقرب من الثعبان فتناولت الفأس وترددت كثيراً وأنا أناوله

إياه ماداً ذراعى عن آخره .

هز رأسه قائلاً : لا .. ياإبن المدرس .. عندما تناول الفأس أو السكين لأحد يجب أن تمسكها دائما من النصل .. تأكد أنك تسلمه اليد التى تمسكها بها وليس النصل .. ذلك ما نفعله فى المزرعة .

فعلت ما أراد قائلاً : ها هى .

• أوه .. ستكون فلاحاً فيما بعد .

• سوف أكون طبيباً

• لا بأس .. لقد قطعت رأس الثعبان بضربة واحدة رغم أننى حلاق كما تعرف وأملك مزرعة أعتنى بها وإذن يمكنك أن تكون ماتريد وتعمل فى مزرعة فى نفس الوقت .

تذكرت إسحق .. إن بابا يعمل ناظراً وهو أيضاً يعتنى بالحديقة .

رمى الفأس إلى (ييمى) الذى يعرف كيفية الإمساك به ثم راح يحفر حفرة فى الأرض .

قلت : لماذا تزرعها ؟

قال : تذكر دائماً أن رأس الثعبان تظل خطيرة حتى بعد قطعها فقد يمر شخص ما فوقها وحينئذ يتسرب السم إلى جسده .. يجب دائما دفن رأس الثعبان أو حرقها ومن الأفضل أن يكون ذلك بعيداً عن الطرق التى يرتادها

الناس .

قدم لى الأخ (بوبا) بطاطا من مخزنه وقال : هل تستطيع أن تقشر البطاطا ؟

• إننى أحيانا أقوم بشوائها فى المنزل لكل أفراد العائلة .

حسنا .. وسوف يشعل (ييمى) النار وأسلخ أنا الثعبان ولأنك لا تأكل الثعابين فلك أن تشوى البطاطا بزيت النخيل .

كان كل منا يجهز وجبته الخاصة وكنا قد أحضرنا الفلفل من المزرعة وأعددنا قليلا من الخضروات و من المخزن جئنا بزيت النخيل وبعض التوابل .

إنتشرت رائحة لحم الثعبان فى المكان بعد ساعة وقد كانت بحق رائحة جميلة تلاشت بجانبها رائحة الأوراق الخضراء الموجودة فى المزرعة .

عندما أوشك الطعام على الانتهاء نظر (ييمى) إلى أعلى : (برودا) .. لماذا لا نستخدم مسحوق البطاطا ؟

• أنت تعنى البطاطا المهروسة

هز (ييمى) رأسه : نعم .. أعرف أن بعض الناس يتقاتلون مع أعز أصدقائهم من أجل البطاطا المهروسة .

• أوه .. أنا لا أعرف أحداً يفعل هكذا ولكن دعنا ننتهى من هذا ..

إنه أول يوم فى المزرعة بالنسبة لوول .

قلت معترضاً : نحن نملك مزرعة فى الطريق المؤدى إلى «أوزيل» خارج المدينة ولقد ذهبت مع إسحق مرة أو مرتين وكان إسحق يستأجر أحد الفلاحين للعناية بها .. إنه فعلاً يحسن العناية بها .

• رائع .. إن والدك المدرس يملك مزرعة وهو إبن فلاح لكن عمله يجعله لا يملك الوقت الكافى للاعتناء بها كى تصبح مثل هذه المزرعة فهل قضيت أنت مثلاً أسابيع طويلة فى مزرعتكم ؟

هززت رأسى بالنفى .

• هل ترى .. وهل قضيت ليلة واحدة ؟

• أبداً .. ولا حتى ليلة واحدة .

• وهل جربتم طهى إناء من الطعام مثل هذا ؟ أو تناولتم البطاطا المهروسة فى المزرعة ؟

• نحن لا نملك *abule مثلك .

• هذا بالتحديد ما أتحدث عنه .. ليتنا نقضى الليلة هنا إذا وافقت زوجة المدرس .

يالها من فكرة رائعة أن نقضى الليلة هنا فى المزرعة .. شئ جميل حقاً

* كوخ أو عشة .

قلت دون تفكير : نستطيع إذ يمكنك أن تخبرهم غداً بأن الوقت كان متأخراً وأن الظلام قد هبط علينا فقررنا البقاء والمبيت هنا .

هز الأخ (بوبا) رأسه قائلاً : إذا لم نرجع بعد الغروب فسوف تقلب الدنيا بحثاً عنك .. هيا تعال وساعد (بيمى) فى سلق البطاطا بالماء الساخن فإننى جائع .

كنت مثله جائعا وعندما بدأنا فى تناول الطعام كنت متأكداً بأننى لن أقرب لحم الثعبان لكننى اكتشفت أنه ليس لحماً لزجاً أو متعدد الألوان .. كان لحماً ذا لون أبيض جذاب مثل لحم الفراخ والأرانب فقررت أن أتذوق قليلاً منه ثم عرفت أن طعمه أيضاً لا يختلف كثيراً عن طعم الفراخ والأرانب وحمدت الله بينى وبين نفسى أنه لم يحرمنى مثل ذلك النوع من الطعام كما أننى أستطيع أيضاً التباهى بذلك فى «آكية» عندما نعود .

هز (برودا بوبا) رأسه باستحسان متعجباً من شهيتى فى تناول اللحم فألقى بقطع أخرى فى طبقى .

كانت إستراحة قصيرة بعد الغذاء إمتدت إلى ما قبل غروب الشمس حيث بدأنا فى العمل من جديد .. كنا نجمع البذور ونعرض النشا للشمس ثم إنطلقنا فى طريق العودة محملين بالبطاطا وسلة من البرتقال وبعض الخضروات والفلفل .

كنا فى منتصف الطريق بالقرب من مفترق أحد الطرق حين سمعنا صرخة إنسان .. توقف (برودا بوبا) وأشار لنا أن نلتزم الصمت ونصغى

السمع .. كان شخص ما يئن ويتألم وكانت صرخاته متتالية .. إستطعت أن أسمع صوته وهو يقترب شيئاً فشيئاً .. إنه صوت رجل لكن صرخاته كانت كصوت طفل مضروب .

أبصرنا الرجل فصرنا نلهث بشدة .. كان وجهه وذراعاه ورقبته متورمة إلى ضعف حجمهما العادى وكانت أيضاً بعض التجاعيد بحجم *awuje .. حاول الرجل أن يمشى ولم يكن يقوى على الكلام .

قال الأخ (بوبا) مشفقاً : إنه من تلك القرية القريبة .

وقلت متسائلا : أى شئ فى الكرة الأرضية فعل ذلك بوجهه ؟

أجاب كلاهما : النحل .

ثم أضاف (ييمى) : لابد أنه كان يجرى .

قلت : وماذا كان عليه أن يفعل ؟ لو كنت أنت مكانه لفعلت نفس الشئ .

- أوه .. لا .. من الخطأ أن تفعل ذلك .. يجب أن تلقى بنفسك بسرعة على الأرض ثم تتدحرج بعيداً عن المكان .

- وإذا كانت الأرض مليئة بأوراق الشجر اللاسعة فكيف تستطيع عندئذ أن تتدحرج .

قال (برودا بوبا) : عليك إذن أن تنحنى نحو الأرض إلى أقصى ما

---

* نوع من الفول كبير الحجم

تستطيع حتى تقترب من الأرض ثم تبدأ فى التحرك بعيداً ولكن لا تقف ولا تجرى .. فقط إبق على الأرض وتحرك بهدوء حتى لو أصابتك الأشواك .

- قبل الإنتهاد من إقامتنا عند أقاربنا من النسوة التاجرات نجحت فى التعرف على مجموعة من الأولاد كانوا كالعادة أكبر منى وحين ذهبنا للصيد بقيادة (چيمو) كنا نحمل النبال والعصى والحجارة .. قسم (چيمو) المجموعة إلى نصفين يحمل أحدهما النبال والحجارة بينما يعمل النصف الأخر بالمراقبة وقد كنت طبعاً من حاملى النبال والأحجار لكننى لم أستطع أن أزعم أننى فى مستوى (چيمو) وأصدقائه الذين كانوا يستطيعون بسهولة أن يوقعوا بالسنجاب على الأرض بضربة واحدة من النبلة رغم أننى فى «آكية» ضربت بالنبلة سحلية أو إثنتين وطائراً صغيراً لكننى عقدت العزم على ضرورة أن أتفوق على نفسى وأصبح ضارباً ماهراً .

تحركنا نحو الشجيرات فى صف واحد وكنت أضرب الحفر وقطع الخشب المتناثرة بالعصا وأهز الشجيرات .

كان (چيمو) ومن معه من حاملى النبال والأحجار والعصى والهراوات ينتظرون فى الجانب الآخر من الأرض لما تحركت بإتجاه شجيرة أخرى وهززتها فأصابنى فى الحال ألم حاد فى جبهتى .. تطلعت حولى فكانت الدبابير والنمل الكبير .. تذكرت تعليمات (برودابوبا) وقمت بتنفيذها كما لو أننى أقوم بأحد التمارين .

إن المرء دائما فى «إيسارا» مكبل بالتساؤلات ولا شئ فيها يبعث على

الإستقرار .

أعلن (چيمو) ضرورة أن نتوقف عن الصيد ولم تكن قد أصابتنى سوى لسعتين .

قال (چيمو) يؤنبنى : من الممكن أن تصاب بالحمى .. لا أحد يتوق أن يكون مسئولاً عن مصائب أبناء المدرس .

هل كان من سوء الطالع أن أكون إبناً للمدرس لكننى على أية حال كنت قادراً على إنقاذ نفسى فتحملت جروحى وآلامى بشجاعة حتى عدت إلى المنزل وشرحت لهم كل شئ .

كانت رأس أبى مثل رءوس القساوسة لكنها عنيدة ومليئة بالأفكار والإشعاعات وكانت كالحصن المنيع حتى أننى إعتقدت فى يوم من الأيام أن الرصاصة لا تستطيع إختراق تلك الرأس التى تحتفظ بالكثير فى داخلها دون البوح به لكنها كانت بشعرها الغزير ناعمة كالحديد المطروق وأصغر حجماً من رأس إبنه .

كنا نتناقش بشجاعة وكنت أعرف أنه لا يؤمن إلا بما يعتقد مثل الأجبونى فى «آكية» أو مثل القساوسة بمختلف أنواعهم وأشكالهم وكذلك مثل المسيحية المتوحشة وصديقاتها المتدينات اللاتى يمشين فى الشوارع والأسواق والطرقات فى نهاية كل إسبوع من أجل الدعوة إلى كلمة الله .

كنت فى قرارة نفسى خائفاً من الأب الذى بدا لا مبالياً بكلمة الله عندما

حكيت حادثة النحل وقال : «أوجن» يحمى أتباعه .

قلت له : لقد سمعت بهذا الإسم من قبل .. إن أوجن شرير وعابد للأصنام .. إنه يقتل الناس ويحارب الجميع .

• أهذا ما علموك إياه ؟

• نعم .. أليس ذلك حقيقياً ؟

حك ذقنه واخترقنى بنظراته ثم سألنى سؤالاً غير متوقع : هل يضربك زملاؤك؟

• أحياناً لكنهم غالباً ما يخافون لأننى إبن الناظر .

• هل أنت الذى يخبرهم بذلك عند بداية الشجار ؟ .. لابد أنك أنت الذى يقول لهم ألا يضربوك لأنك إبن الناظر !!

• لا .. أنا لا أقول ذلك .. إنهم يقولون من تلقاء أنفسهم .

• ماذا تعنى ؟ كيف يقولون ذلك ؟

• إنهم يشيرون بأصابعهم نحوى قائلين : أنت محظوظ .. آهـ لو لم تكن إبن الناظر . أعتقد أنهم يخافون الفصل من المدرسة إذا ما لمسونى .

• وهل تعتقد أن (آيو) يفصلهم إذا ما فعلوا ؟

• لا .. إن أحداً لا يخبره بأننا كنا نتشاجر وإذا حدث وعدنا بملابس

ممزقة فإنهم يعاقبوننا وكنت أتعجب لما كان يضربنى علانية وبشكل غير عادل .. ماذا ترى فى ذلك يا أبتى ؟ .. يضربوننا بالخارج ونعود إلى المنزل فيضربوننا من جديد .. ليس ذلك من العدل فى شئ .. أليس كذلك ؟

تلألأت عينا الأب بفرح داخلى ثم نهض متجهاً إلى الركن البارد وشد برميل النبيذ فسارعت بإحضار القنينة من الدولاب وقلت : إن «آكية» كلها تعرف أنهم يجلدوننا بالسياط إذا ما تورطنا فى قتال أو شجار مع أحد لكن الذين لا يحضرون إلى مدرستنا لا يهتمون ولا يخافون وإنما يقولون باستفزاز : قاتلنى مرة أخرى إذا كنت تجرؤ .. ثم يصوبون ضرباتهم بسرعة ويلوذون بالفرار أو نلوذ نحن بالفرار .

نظر إسحق نحوى بقصد وقال : أمتأكد أنت أنك لا تجرى لأنهم أكبر منك ؟

- أوه .. إنهم جميعاً أكبر منى فأنا لا أذكر أننى تشاجرت مع أحد فى مثل سنى ..

لكننى فجأة تذكرت ثم أضفت : ماعدا مرة واحدة مع (ديبو) .

تراءى أمامى المشهد كاملاً فشرحته للأب ثم سألته : أبى .. إنهم ولا شك قوم ظالمون .. إنهم يعاقبوننا عندما نتشاجر بالخارج وفى نفس الوقت يثيرون أخى نحوى !!

ظل الأب يهرش نهاية ذقنه وهو يقول : سوف تفهم فيما بعد .. إنهم

يحاولون فعل الصواب لكنهم يتصرفون بطريقة خطأ .

ملأ كأسى إلى منتصفه وكأسه إلى الحافة حتى كادت الرغوة أن تتساقط فسارع بإحتسائها .. كنت أرشف من كأسى مراقباً وجهه الذى إكتسى بالعبوس ثم قال بقرف : ذلك الرجل كسول فالأشجار التى يستخدمها فى صناعة النبيذ سيئة وقديمة .. إن كل الأشجار فى مزرعة (لاريلو) قديمة وسيئة.

ثم هز رأسه مؤكداً : سوف أرى ذلك(١) *Alakori .

عاود ملء كأسه بنفس الطريقة وهو يزيل(٢) *orogbo ويفتت قشرتها الرفيعة بأصابعه وقال : دعنا نواصل حديثنا .. إن الأب يريدك أن تلتحق بمدرسة الرجل الأبيض فى «أبادان» .

• كلية الحكومة ؟! .. لكنى إنتهيت تواً من المرحلة الثالثة ولا يزال الوقت طويلاً .

• ليس طويلاً كما يرى الأب .. إن آيو يعتقد فى العقول وليس فى الأجساد .

تجهم فجأة وقطب وجهه : إنتظر .. هل قلت أنك فى المرحلة الثالثة ؟

• نعم ولقد بدأت فى المرحلة الرابعة .

---

* (١) شخص لا أمل فيه .
* (٢) نوع من البندق يستخدم كمنبه .

راحت رأسه المليئة بالأفكار تصعد وتهبط مثل أنثى السحلية : نعم .. ذلك ماقاله والدك أى أنك فى نهاية العام القادم سوف تنتهى من المرحله الرابعة وهو يريدك بعد ذلك أن تلتحق بالمدرسة الثانوية .. يجب أن تتقدم لإختبار المدرسة الجديدة .

• نعم .. سوف أجتاز كلا الإختبارين .. مدرسة «أبيوكوتا» ومدرسة الحكومة.

أومأ برأسه مرة ثانية : وإذن فأنت الآن فى الثامنه والنصف تماماً من عمرك .. أليس كذلك ؟

• نعم .. تماماً

• إذا دخلت تلك الكلية الحكومية فسوف تغادر المنزل وتقيم فى المدرسة أى أنك ستكون مسئولاً عن نفسك لأول مرة دون مساعدة والديك .. سيكون ذلك عند بلوغك تسع سنوات ونصف فهل أقول الصواب ؟

قلت له بأنه على صواب وأن كل ما قاله صحيح وكنت أعرف ما تؤدى إليه هذه الخطوة فأكدت له بأننى لست خائفاً من مغادرة المنزل لكننى فى الحقيقة كنت قلقاً وتملكنى اليأس من الفكرة ولم أكن راغباً فى أن يقول لإسحق أننى لم أعد صغيراً .

• أتعتقد أننى لست صغيراً لمغادرة المنزل أيها الأب .. أليس كذلك؟

• لا .. إن الأطفال يتركون منازلهم لأغراض أخرى أيضاً وليس فقط من أجل الدراسة .. لا .. كنت أفكر فى أن الآخرين سيكونون أكبر منك كثيراً تماماً مثل زملائك فى مدرسة (آيو) الذين يكبرونك أيضاً .

• ولكننى أتفوق عليهم جميعاً فى الفصل ولا أعانى أية مشكلة على الإطلاق.

• نعم .. لقد أخبرنى والدك بذلك لكنك لم تفهمنى حتى الآن .. إن الناس لا تذهب إلى المدرسة الثانوية من الإبتدائية مباشرة .. إنهم غالباً يلتحقون بالمستوى السادس الأولى حيث يحصلون على شهادة «الأساميند» ثم بالتعليم الشعبى ويستطيعون عندئذ العمل كمدرسين أو مفتشى صحة أو مرشدين فى السكك الحديدية ....

إبتسمت لكن الأب أساء فهمى حين قال : لاشئ يدعو للضحك .. إنهم يعملون بهذه الشهادة وبعد أن يوفروا منها الكثير يلتحقون بالمدرسة الثانوية حيث يحاولون ويحاولون عدة مرات أن يصل إلى المستوى الثامن لكن معظمهم يتوقف عند هذه المرحلة والقليل جدا من يصل إلى المرحلة الأخيرة .. والآن .. هل ترى ما أقصد ؟ وهلى تفهم ما أعنى ؟ .. يجب أن تفكر فى زملائك بالمرحلة الثانوية .. إنهم ليسوا مثل زملائك الأكبر منك فى المدرسة الإبتدائية وإنما ستراهم رجالاً وقد تجد بينهم متنزوجين يخفون طفلاً أو طفلين فى أحد الأركان .. سوف تشارك رجالاً فى مقاعدهم .

قال ذلك وحك ذقنه وكان يضحك بصوت مكتوم وهو يقول : سوف يأتون

بصابون الحلاقة والأمواس .

إنتهى من ضحكاته المكتومة وتظاهر بالوقار من جديد : إن (آيو) طموح جداً فهو يريد إرسال إبنه إلى المعركة .. صدقنى فإن عالم الكتب هو ساحة للحرب .. إنها أكثر المعارك ضراوة .. أكثر من تلك التى إعتدنا أن نسمع عنها فهل تعتقد أن أولئك الرجال سيسعدون بوجودك ؟ فلتبدأ فى منافستهم ..

ملأ كأسى مرة أخرى وقال : إشرب نبيذك فهو خفيف تماماً ولا يترك أثراً وحتى لو شربت القنينة كلها فلن تشكو (إينيولا) لكونى جعلت منك سكيراً .

آهٍ .. (إينيولا) .. كان الأب واحداً من القليلين الذين يدعون المسيحية المتوحشة بهذا الإسم .. (رانسوم كوتى) ، (داودو) ، (أوديمو) وكذلك (مورون) هم الذين كانوا يدعونها بهذا الإسم بالإضافة إلى واحد أو إثنين من الأقرباء الذين كانوا يباغتوننا من حيث لا ندرى ثم يتلاشون كالزوبعة أما الآخرون فكانوا يقولون ماما (تينى) أو ماما (وول) أو Iyawo* الناظر .

ظل الأب يراقبنى وينظر إلىّ بطريقة متعمدة وهو يقول : أياً كان الأمر فإن الإنسانية فيها الخير وفيها الشر واليأس هو الذى يحول بعض الناس إلى أشرار ويشعل نار الحسد والغيرة التى تجدها فى كل مكان .. نعم فى كل مكان .. هل تعرف سبب وجودى ؟ أو من أجل أى شئ أحيا ؟

أصابنى الإرتباك وتلعثمت ولم أستطع أن أفهم ما يقول : أنا لا أفهم!!

مال بذقنه ناحية رقبته وبدأ يهزها مثل الديك الصغير : أوه .. أتعتقد أننى

* زوجة

جئت بكم إلى هنا بمناسبة العام الجديد دون أن أحذر منكم ؟ يوجد الكثير في العالم .. إن العالم ليس هو عالم المسيحيين أو عالم الكتب .. آهٍ .. كفى ذلك اليوم فكلانا لديه أعمال للغد .

رحت أفكر في أعمال الغد التي تحدث عنها .. هل هي زيارة أخرى للمزرعة لكنها بالطبع ستكون مزرعة الأب هذه المرة .. لم أستطع إحتمال توقعاتي فبادرت بالسؤال : أي أعمال تعني ؟

إنتصب واقفاً : أوه .. نعم .. لقد نسيت أنهم أخبروني بأنك لا تتوقف عن إلقاء الأسئلة .. إذهب وألعب مع أصدقائك فلقد أعددت كل شيء مع والدك لكنني فقط لم أحدد اليوم والآن فلنواصل حديثنا غداً .

لاحظ أنني قلق لعدم تقديم أي تفسير عن سؤالي فهز رأسه قائلاً : غداً .. لكنك على أي حال ستعود الليلة وتنام هنا .. هيا إذهب .

ـ كان إسحق منذ اللحظة الأولى التي وصلنا فيها إلى «إيسارا» ينام في منزل الأب وكنا نحن الأطفال والمسيحية المتوحشة نشغل المنزل بدونه .. إنفصل تماماً عن عائلة «آكية» وراح يندمج مع مدينته .. كانت تشغله بعض الأمور الثابتة كإجتماعات المدينة واجتماعات العائلة وجلسات مجلس الكنيسة .. كانت في إنتظاره مئات من الواجبات على مدار السنة وكان بمضي معظم الوقت مع (أوديمو) الذي كان يخفف من أحاديث إسحق الصعبة في «إيسارا» بمساعدة واحد أو إثنين من بينهم أبي الروحي الذي هو زوج السيدة التي كان مفروضاً أن تصبح زوجتي .

تساءلت كثيراً كيف أن (أوديمو) لا ييأس من أولئك الرفاق .

كان من اليسير لواحد منا أو أكثر أن يبقى وينام فى منزل الأب فلم تكن ثمة تعليمات صارمة تمنع ذلك خاصة وأن الحصائر كانت متوفرة بالإضافة إلى السطح الملئ بروث البهائم الذى يستخدمونه كحجرة للنوم .

كنت أقضى نصف ليالى «إيسارا» فى منزل الأب رغم الناس الكثيرين الذين كانت ترسلهم المسيحية المتوحشة لإستدعائى وعند صدور أول أمر مباشر أن أنام هناك لم أستطع أن أغالب الأرق حتى وقت متأخر من الليل .

إستيقظت مبكراً فأبصرت الآب ينحنى نحوى ماسكاً المصباح فى يديه .. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد وكان إثنان آخران موجودين فى ركن الحجرة أحدهم رجل كبير والآخر ولد صغير لكنه أطول منى ودون أن أدرى رأيت نفسى أنظر فى كل الإتجاهات بحثاً عن أبى ولم أكن أفكر فى شئ سوى الجولة التى سنقوم بها .

قلت : إلى أين نحن ذاهبون ؟

- هل إستيقظت تماماً ؟
- نعم .
- إذن .. إذهب واغتسل .. لقد تركت دلو الماء فى الفناء .

فعلت ما أمرنى به وفى الطريق شاهدت طبقاً من الطين الخزفى بين

الرجل الكبير والولد وزجاجة من زيت النخيل وبعض العلب الصغيرة المليئة بالبودرة .. كان الطبق المسطح يحتوى قطعاً معدنية تشبه المحار .

تساءلت كثيراً بينى وبين نفسى وأصابنى الإرتباك .. إنتهيت من الحمام وأنا أرتعش من برودة الصباح والإحساس بالتشاؤم وعند عودتى من الفناء لاحظت إعادة تنظيم الكراسى والمقاعد الصغيرة وكانت العصا قد تحركت من مكانها عند الحائط إلى منتصف الحجرة .. كان الرجل الكبير واقفاً والولد راكعاً بجانبه يعيد تنظيم القوارير والأباريق والصوانى ومجموعة غريبة من المعدات والأجهزة والآلات .

قال الأب بلغة الآمر : تعال وإجلس هنا .

كان يشير إلى الكرسى الخشبى فقمت بإطاعته ثم تحرك من الباب وأصبح فى مواجهتى حين قال : لعلك تتذكر ما تحدثنا عنه بالأمس !؟

أجبت : نعم .

• عظيم .. والآن إستمع بانتباه .. سوف تعانى الكثير فى خطوتك القادمة .. إنظر لى !!

نظرت بسرعة إلى الصينية على يسارى وتطلعت إلى عينيه المحترقتين وهو يقول : من الأفضل لك ألا تفكر بمصدر المعاناة والألم .. إن هذا الولد فى مثل عمرك فهل تريد أن تخجل من نفسك بأن تصرخ أو تشكو قبل أن يفعل

هو ذلك ؟

توقف عن الحديث ثم إخترقنى بنظراته فى إنتظار إجابتى فقلت : لا .. أنا لا أصرخ أو أبكى .

شعرت بالخوف ولم يتوقف قلبى عن الخفقان وظللت فى إنتظار ماهو أسوأ إذ لم تكن لدى أية فكرة عما سيقومون به لكننى كنت أعرف أنه لا يجب أن أبكى مهما كان الألم وعندئذ تذكرت شيئاً .. آهـٍ .. لقد بكيت عندما ماتت (فولاساد) .

قال الآب : كانت تلك الطفلة[(١)] *abamigidi ولقد أخبرت (آيو) فى حينها وعلى أية حال فإن[(٢)] *Ibanuje, Ko m'omode, Ko m'agba .

وفجأة أومأ برأسه للرجل الغريب ثم شعرت بغتة أن قدمى مسمرتان فى الأرض وأن كعب الحذاء مضغوط ثم تحركت يده بسرعة وضغط على كرة قدمى إلى أسفل وأنا أواصل ضغط كعب الحذاء على الأرض بينما راح الولد الصغير يمسح قدمى بخرقة مبللة ثم أمسك الرجل الكبير بالمشرط .. إشتد الألم فى قدمى فصرخت مثبتاً أقدامى فوق الأرض بيدى اليسرى لكن جسدى بدأ يترنح وأنا أواصل الصراخ غير أن زوجاً من الأيدى القوية كان يضغط فوق كتفى .

رأيت كما يرى النائم نفس الشفرة المعدنية تتلألأ داخل الطبق أو خارجه

---

* (١) طفلة غريبة وسحرية .. غريبة حقاً .

* (٢) إن الندم والموت لا يعرفان إذا ما كان الإنسان صغيراً أو كبيراً .

فإنتشر الألم فى جسدى كله .. نظرت إلى الجرح فكان الدم ينزف وأطلقت أول صرخة حادة لكن الدموع التى إستقرت فى عينى رفضت أن تتدفق .. ضغطت على أسنانى حتى لا أصرخ مرة ثانية وضغط الأب بأصابعه فوق كتفى وكان جسدى يتقلص مع كل حز بالمشرط فى قدمى حتى لم أعد أستطيع النظر إلى أسفل فأغلقت عينى لاصقاً أسنانى ببعضها فى إنتظار نهاية هذه المحنة .

... بدأت الدموع تتدفق رغماً عنى ...

ربطوا قدمى وكانت لفافة كبيرة فى الخليط الموضوع فى الطبق .. نزعوا قدمى من الأربطة ووضعوها فى ذلك الخليط .. كان الولد لطيفاً جداً .. تكرر نفس الشئ مع القدم الأخرى غير أننى لم أشعر بما شعرت به .

أصبح فكى طليقاً ولم أعد أقبض على أسنانى وأعجبنى ذلك الإستخدام الدقيق للسكين .

لم أصدق أن الانتهاء من كل شئ قد تم فى وقت قصير .. أشرقت الشمس فى الخارج وكانت الظلال منتشرة عبر الباب .. كان الغريب يتحدث ببطء فى ركن الحجرة بينما يومئ له الأب بالموافقة ثم عاد الرجل الكبير يلم معداته وأدواته وكان الولد يغسل الطبق خارج الباب عندما كان الرجل ينظف الشفرة ويصب بقية البودرة فى أباريق صغيرة قام بوضعها فى حقيبة واسعة كنت قد رأيتها منذ قليل معلقة على الباب .

كان الأب يودعهم ثم أغلق الباب وجلس فوق الكرسى الخالى قائلا : (وول)

.. لقد كنت قوياً والآن إستمع لى بانتباه شديد ...

تناول علبه النشوق وفتحها ثم إلتقط بعضاً منها بيده اليسرى وأعاد وضع الغطاء مستطرداً : تناول الطعام الذى يقدمونه لك ولا تخف .. دع الشكوك جانباً وتناول طعامك ولا تأت إلى هذا المنزل مرة ثانية .. هل تفهم ما أقول ؟

هززت رأسى دون أن أنطق بكلمة واحدة .

قال : عليك بمواجهة المعارك ولا تعطى ظهرك لها وحيث تجد نفسك لا تهرب من التصدى للمعارك .. إن خصمك غالباً ما يكون أكبر منك ولابد أن يقهرك فى المرة الأولى وعند ملاقاته فى المرة الثانيه لابد أن تتصدى له غير أنه أيضاً سوف يقهرك لكننى أعدك بأنك ستقهره فى المرة الثالثه أو أنه سيلوذ بالفرار .. هل تسمعنى ؟

- نعم يا أبتى .

- لقد أرسلت والديك وبقية الأطفال إلى «ساجامو» لزيارة بعض الناس وإذن فنحن الآن بمفردنا .

تجولت بنظراتى فى الحجرة بحثاً عن أبى الذى كنت أعتقد فى وجوده بأحد أركان الحجرة فابتسم الأب وهز رأسه : أوه .. إن ماحدث بيننا نحن الإثنان فقط والآن يجب أن أمضى لأن إجتماعاً ما فى إنتظارى وثمة شخص سوف يحضر لك الإفطار .. لا تأكل أى شئ آخر اليوم وغداً فيما عدا ما أرسله لك .. هل تفهم ؟

قلت له مؤكداً بأننى سأفعل ما قاله ثم شعرت بالإرهاق وازدحمت رأسى بالأفكار.

أحسست أن يدى منفصلة عن جسدى وسمعت نفسى أتساءل : هل ما فعلوه بقدمى قد حدث مع بابا عندما كان صغيراً مثلى ؟

رفع الأب عينيه إلى العارضة الخشبية قائلاً : لقد أخبرونى بذلك .. آهٍ .. إنهم على صواب .. لقد حذرنى (آيو) وكذلك (إينيولا) بأنك سوف تقتلنى بالأسئلة.

ذهب الأب إلى حجرته واستطعت أن أسمع ضحكاته المكتومة مخلفاً وراءه صرخاته وأوامره.

كنت جالساً ما أزال .. حاولت أن ألمس قدمى .. هل ستتحمل وزنى أم أننى سأقع إذا وقفت ؟ يبدو أن حيرتى قد إنتقلت إليه فى حجرته حين سمعته : حاول أن تمشى على الحرف الخارجى للقدم ثم على الحرف الداخلى وإذا فشلت عليك أن تمشى بالطريقة العادية بدون أن تضغط على قدم دون أخرى ولكن برقة وهدوء.

كنت متأكداً فى إعتقاد الأب أننى لا أفهم فوقفت على قدمى ورحت أضحك بسخرية.

(١٠)

- لم يكن رنين ساعة الكنيسة أو أصوات فرقة البوليس أو مدخرات السوق هى وحدها ما نسمع وإنما أيضاً كانت أجراس الفرق الإلكترونية التى يحملونها ويساومون بها فى بيع البضائع المستوردة .. إمتلأ الطريق الذى يتوسط سور فنائنا الخلفى وسور الكنيسة ببضائع الباعة الجائلين .. شالات وأمشاط ومرايا ، إيريال للراديو ، رغاوى بألوان مختلفة وقطع غيار من المطاط ، قوارير وأكواب للشراب وأخرى لوضع الزهور ، مفارش شرقية للموائد مصنوعة فى مانشستر ، ساعات ومجوهرات ، براوز للصور وأخرى لصور راكيل وولش ومارلين مونرو وديانا دورس وچين راسل وجريتا جاربو وبعض صور نجوم العالم من الرجال بشواربهم الفظة.

كانت "آكية" مليئة بالأصوات والتحركات الغريبة منذ الفجر وحتى الغسق ثم تلك الأحاديث والروايات المختلفة التى كنا نسمعها ونحن فوق حصائرنا فتزيد من حيرتنا ونحن نقاوم النوم والبق والصراصير والحشرات ذات الأجنحة الشفافة القادمة من كنيسة القديس بطرس .

- عند زيارة العمة (ليچادو) أو القيام بنزهة فى الليل كنت أغنى طوال الطريق خوفاً من أخطار الظلام والعفاريت وأرواح اللصوص وذات يوم سمعت من يغنى بأعلى صوته :

« أنا الساحر

يجب أن تعرفوا جميعاً

فسوف تسمعون عنى إينما ذهبتم

يمكنكم رؤية إسمى بحروف كبيرة

وتستطيعون رؤيتى وأنا ألتهم دجاجة كبيرة

أنتونى بيتر زخارى الأبيض

الرجل الذى يهب السرور دائماً

أصدقائى .. تعالوا وشاهدوا

أى نوع من السحرة أكون

تعالوا جميعاً .. مرة واحدة

والتحقوا بالجمع

إرفعوا أصواتكم بالشكر والثناء»

لماذا الدجاج ؟ .. كان سؤالاً يبعث على الحيرة فلم تكن قوة الساحر غريبة لكنها غامضة وكان أولئك السحرة الذين تلقوا تدريبا فى الهند يقومون بأعمالهم دائماً فى الصالة المئوية حيث يحرقون البخور ويتمتمون بمئات من التعاويذ والكلمات الغامضة ويرشون المياه الروحية .

أصبحت الأغانى هى حارسى الدائم وأنا أعبر الطريق بين سور فنائنا الخلفى وفناء الكنيسة كما كنا نغنى النشيد الوطنى مع الكورس فى المواسم

مما ساعد فى تقوية صوتى فكانت النغمات تخرج من حنجرتى واضحة لكن الكلمات كانت تبدو وكأنها لغة غريبة هى خليط من الإنجليزية ولغة اليوروبا كتلك التى يتحدث بها طفل جميل من خلال زجاج النافذة .

كنا أحياناً نشاهد السيد (أوريچا) عازف الأرغن وهو قادم من بوابة الكنيسة الخلفية .. اتجهت ناحيته ذات يوم وأنا أنشد بعضاً من الشعر الوجدانى الغامض

كان رجلاً متهدلاً يبدو كالشبح ودائماً ينظر حواليه وهو يمشى بخطى واسعة نحو الكنيسة كى يلحق بالصلاة .. توقفت وقلت له بفزع : مساء الخير ياسيدى.

تمنيت ألا يكون فى غنائى ما يمس الدين حتى لا يخبر إسحق فى اليوم التالى لكنه جاء لزيارتنا ومعه ديك كى يسأل إسحق أن ألتحق بالكورس وليس لإخباره بأيةمخالفة كما تصورت .

تناقش مع إسحق طويلاً وكان ثمة إحساس غريب قد تملكنى منذ اللحظة الأولى التى رأيته فيها وهو يقترب من الباب الأمامى .

قال إسحق : إنه ما يزال صغيراً .

لكن السيد (أوريچا) كان مصراً على أن صوتى صالح للسوبرانو وأخيراً تمت الموافقة .

كان (أودون) يقيم فى الجانب الآخر من سوق "إيبارابا" وقد تم إختياره

معى للكورس وكم سعدنا بذلك الإختيار لأنها فرصة أخرى للتحرر من قيود أهل البيت إلى جانب الدروس والكشافة وبعض القصص الخيالية .. إصبح لدينا ما يبرر خروجنا فكان يكفى أن نقول : نحن ذاهبون إلى تدريبات الكورس .. لكننى بالرغم من أننى أعيش بالقرب من الكنيسة حيث التدريبات إلا أننى كنت أعبر الطريق بين ميدان "أكية" وسوق "إيبارابا" متجولاً خلال السوق حتى أصل إلى (أودون) لأعود معه فى نفس الطريق قاصداً الكنيسة للتدريبات.

لم يكن سوق الصباح يثير إهتمامى فقررت تغيير طريقى إلى سوق المساء فى الجانب الآخر من الطريق المؤدى إلى "إيبيريكودو" وكان هذا يعنى أن مسافة السير ستزيد عشر دقائق أو خمس عشرة دقيقة فرحت أخرج قبل موعدى حتى أصل فى نفس الموعد .. كانت رائحة الورود فى السوق تنعش الأنوف فى المساء وكأنها تشير إلينا أن ننفق نصف ما نجحنا فى توفيره طوال الأسبوع .

وقفنا فى السوق ذات مرة نتأمل الأصابع الرقيقة للمرأة العجوز وهى تغرف عجينة الفول البيضاء من الطبق بكميات متساوية وتلقى بها فى الزيت المغلى حيث تغوص فى الزيت وتترنح فوق السطح ثم تتحول إلى اللون القرنفلى وتصبح كالفقاعة .. كانت قشرة العجينة من الخارج يابسة ذات لون يميل إلى الأسمر وكانت عجينة الفول من الداخل مختلطة بالخضروات والفلفل الأحمر لكن النقود لم تكن كافية لإشباع كل الرغبات التى كنا نتغلب عليها بالرؤية والشم.

أصبح تدريب الكورس سبباً أساسياً للنزهة عبر "إيباراب" والتمتع بروائح المساء الفاخرة وما هي إلا شهور قليلة حتى أصبحنا من المرتلين الجيدين فلم نعد تحت التمرين لكننى ظللت أغادر المنزل مبكراً فى أيام الآحاد وأعياد الكنيسة الأخرى لإستدعاء (أودون) لتراتيل الصباح والمساء

لم يكن سوق الصباح يعمل فى أيام الآحاد لكن إمرأة كانت تأتى وتصنع الطعام من جراد البحر والفول والأرز ومختلف أنواع البطاطا .. كانت تقف وحيدة تواصل عملها لكن إفطار المنزل كان كافياً فلم تستطع أن تثير شهيتنا .. كنت أضع الرداء الكهنوتى الأبيض فوق كتفى وأسارع باحضار (أودون) مناشداً الله أن أصل بأقصى سرعة إلى "إيباراب" كى ننفق كل النقود التى أعطوها لنا فى الكبدة التى تصنعها المرأة العجوز إلى أن تدق أجراس الكنيسة مشيرةإلى بدء الصلاة وملاقاة الرب .. كنا نغنى ونرتل الأناشيد بطريقة أفضل بعد قضاء وقت طيب عند المرأة العجوز .. كانوا يتضايقون لتبديد تلك النقود فى يوم الاحد لكن أحداً لم يعاقبنا .

– كان الباعة المتجولون ينادون بالغناء على بضاعتهم وأيضاً كانت المحلات المضاءة بمصابيح النيون الخضراء إلى جوار محلات «ماكدونالدهامبورحر» و«كنتاكى فرايد تشيكن» ومحلات السجق ذات الشكل الهندسى المنتظم مثل شرائح الصابون والذى كان الأغنياء يضيفون إليه البيض والأسماك المعلبة القادمة من البرتغال والبلوبيف القادم من الأرجنتين .. كانت آله لصنع الفشار المنتفخ كالقنفذ بجانب تلك المحلات المضاءة وكان الفشار وملفوفاً فى أكياس نظيفة من البلاستيك معلقة فى مواجهة العابرين

الذين يتوقفون للشراء بعيون جاحظة وأسنان متحركة .. كانت أذرعهم تتسابق فى الشراء ملوحين بها إلى أعلى وأسفل مثل الدجاجة وكانت أصوات الراديو والكاسيت تدوى من تلك المحلات المتلألئة.

كانوا يتوجهون إلى بوتيكات الزينة لشراء الدهانات الخاصة بتحسين الوجه أو الشعر فى حالة من الإنبهار بكل ما هو جديد ويتوقفون عند «ماكدونالد» لإلتهام السجق ثم يشربون الكوكاكولا .

كان الزحام والضوضاء والتنافس فى الشراء أو المشاهدة فهكذا تبدو الأشياء فى بداياتها لكنها للأسف كانت تقليعة أجنبية .

كان أبناء الأطباء والمحامين والمهندسين والبيروقراطيين يمرون عبر «دايبزى» يتطلعون إلى القبعات ويتجمعون عند «كنتاكى فرايد تشيكن» أما البنات فكن يتوقفن عند الكوافير حيث موسيقى الديسكو ورائحة المشط الساخن الذى يتخلل شعر الزبونة الشابة دون أن يحرقه .

كان التجول فى «دايبزى» يتسم أحياناً بالقلق حين يصبح ميدان "آكية" مليئاً بالروائح فى موسم المانجوفتنتشر أسراب النحل والفراشات وفى أحد المواسم كانت شجرة المانجو خصبة تكسوها الظلال فكان بائعوا الطماطم يقفون تحتها بسرور وكان عمال وموظفوا الحكومة وأولاد المدرسة والمسافرون فى اللورى يحيطون الشجرة من كل الجوانب يقدمون الطعام وأحياناً الملابس إلى (سوروانك) التى كانت تثير الإنتباه .

كانت (سوروانك) تعيش بالقرب من شجرة المانجو فى كوخ من الكرتون

المقوى ولم يكن حبيبها (يوكولو) يملك مسكناً ثابتاً .. كان يتسكع فى طول وعرض «أبيوكوتا» وكم كان يسيراً أن تلقاه فى كل الأوقات بأى ركن من المدينة وحدث أن رأيناه ذات يوم يشارك (سوروانك) الطعام .. كان يأتى إليها كثيراً وعرفنا من تلك الخرق البالية التى كانت تنشرها خارج الكوخ بعد غسيلها أهمية الرجل بالنسبة لها .. أصبح (يوكولو) يقضى معظم الوقت حول شجرة المانجو بعد أن توقف قليلاً عن جولاته فى المدينة ولم يتوقف عن مشاركة (سوروانك) الطعام .

ظل الناس منتشرون حول شجرة المانجو يتحدثون بشأن تلك العلاقة الغريبة بين (سوروانك) و(يوكولو) وأصبح التلاميذ يعودون كل يوم بأخبار جديدة عن تطور العلاقة الغرامية بين هذيين المنبوذين وكنا نسمع عنهما الكثير من بائعى الطعام وزبائنهم .

رغم ظلال شجرة المانجو الكثيفة فقد تحرك بائعوا الطعام بعيداً نحو الكنيسة وتركت (سوروانك) وحبيبها المكانإلى موقع جديد عند الشجرة وكان من السهل مشاهدتهما عند الظهيرة مستلقيان بظهرهما على الشجرة .. كانا يستخدمان خشب الشجرة فى التدفئة وأحياناً فى طهى الطعام .. كان طعامهما لا يقل حلاوة عن لحم الخنزير المشوى والبطاطا والليكى وكل الأشياء الطيبة الآخرى التى كان بائعو الطعام يعملون بها .

لم تعد (سوروانك) تتكلم كثيراً وبدأت بطنها تكبر شيئاً فشيئاً .. لم تعد تثرثر عن العالم والكون ورحلات (يوكولو) الغامضة حول العالم وإنما صارت

تتمتم وتتلو التعاويذ التى لا يستطيع أحد أن يفهمها وعند إختفاء رفيقها إنطوت على نفسها وكانت تنظر إلى الأرض دائما وهى تتمتم .. يبدو أنها كانت تتحدث إلى الإنتفاخ فى بطنها .

ذات صباح سمعنا فجأة بعض الصيحات والصرخات .. تسلقت السلم مع الآخرين فرأينا بعض زملائنا فى المدرسة يرجمون (سوروانك) بالحجارة والعصى ولم يوقفهم إلا مرور الباعة المتجولين وبعض الرجال الذاهبين لأعمالهم وكانت قبل ذلك بأيام قليلة قد عادت إلى الكوخ بعد غياب غير عادى لم يدم طويلاً فوجدته محترقاً بالنيران وكانت أشياؤها مبعثرة فى أماكن متفرقة بعيداً عن الشجرة .. أصبحت تجلس فى وضع واحد لا يتغير ونادراً ما كانت تأكل فلم تكن تملك طعاما أو نقوداً .

كانت تتجنب الأحجار والهراوات بيديها لكنها سقطت فجأة فوق جزع الشجرة وهي تترنح فسارع الأولاد ببعثرة ما يحتويه موقد النيران من خرق بالية وورق مقوى .

كان الباعة يواصلون أعمالهم وما هو إلا إسبوع واحد حتى إختفت تماماً من ذاكرة الناس فى «آكية» صورة تلك المرأة المجنونة .. المرأة الحامل .. (سوروانك).

(١١)

– أصبح إسحق يقضى كثيراً من الوقت فى حجرته وعرفت أن طعامه أصبح قليلاً ولما كنا نراه خارجاً من حجرته كان ينظرإلينا بقوة لم نتعودها من قبل وهو يهز رأسه بحزن .. كان يبدو طبيعياً ولاشئ قد تغير فى مظهره وكان الزائرون كالعادة يترددون علي المنزل فى أوقات مختلفة من النهار والليل لكنهم كانوا أقل عدداً وأحياناً كانوا يعودون دون رؤية إسحق وهم يقولون : إن الناظر نائم الآن .. يجب أن نتركه ليستريح !!

أصبحت المسيحية المتوحشة على غير العادة تقضى وقتاً أطول فى البيت تاركة شئون الدكان للخادمة أو أولاد العم وكانت تمضى الوقت فى الدخول والخروج من الحجرة تقدم لإسحق الطعام أو الشاى وكانا يتبادلان الحديث بصوت منخفض ولم يكن وقتهما كافياً لمعاقبتنا على ما نسببه من مضايقات قليلة .. كانا مشغولين بما هو أهم .

ظلت مضايقاتنا تقل تدريجياً حتى لم يعد ثمة شئ يمكن أن يعاقبونا عليه .. تلاشت رغبتنا فى الخروج أو التسكع فى نزهات قصيرة ومشاركة زملائنا اللعب وبعد الإنتهاء من المدرسة كنت أسارع إلى المنزل لأن شعوراً غامضاً كان يجتاحنى بأن أكون مع العائلة لأشاركهم المودة واللمسات الهادئة والنظرات الجميلة والأحاسيس البسيطة الرائعة .

دخلت ذات يوم حجرة إسحق فشاهدت الزهور وتحديقه الدائم فى الأشياء وعندئذ إستطعت أن أفهم .. كانت نظراته تصل إلى أبعد من جدران الحجرة

وكم كانت دهشتى عظيمة خين رأيته يهز رأسه فى ضيق ويحدث نفسه برقة قائلاً : «أوه ياعزيزى .. ياله من موت يثير الشفقة» .

سمعته كثيراً وهو يردد نفس الكلمات فلم يعد يساورنى شك فيما سمعت وكانت إبتسامة غريبة ممتزجة بالأسف والضيق والترقب ترتسم فوق وجهه الهادئ الذى كانت ملامحه توحى بشئ ما غامض لم أستطع التعرف عليه لكننى أدركت عن يقين أن الأبتسامة لا تعنى بالضرورة الفرح والسرور.

كان يترنح أحياناً برأسه ويميل بها ناحية اليسار ثم ناحية اليمين وهو يبتسم فى رفق غير أن عينيه كانتا غارقتين فى التساؤلات والدهشة والغموض.

«نعم .. ياله من موت يثير الشفقة»

إستدعانى ذات مرة إلى حجرته وكان جالساً فوق السرير حين طلب منى أن أجلس فى مقعده بجوار الشباك وكانت المرة الأولى التى أراه فيها يبتسم كثيراً وبإصرار .

بادرنى بقوله : لا تدع شيئاً يقهرك فأنت رجل هذه العائلة فإذا لم تكن قوياً فما بالك ب(تينى) والآخرين .. إن تفكيرك يجب أن ينحصر فى التعليم ..ولا تهمل تعليمك .

تحيرت وأحسست بالتعب ولم أستطع أن أفهم شيئاً لكننى أومأت برأسى قائلاً : نعم .

قال : أنت الآن فى مدرسة القواعد وعليك بالإستمرار حتى تجتاز كلية الحكومة لتحصل على منحة دراسية .. إن كليات الحكومة لديها الكثير من المنح الدراسية لمن يستحقها وهذا ما يجب أن تكافح من أجله ولتكن أحد أهم أهدافك أن تجد مكاناً فى كلية الحكومة .. هل تسمعنى ؟ .. إن الحكومة تساند التلاميذ ودائماً لابد أن تفكر بذلك .

قلت له : أعدك بذلك .

كان ما قاله هو ما يطمح فيه وفجأة غمرنى إحساس مفاجئ وحاد بأن إنتقالاً هاماً فى حياتى لابد سيحدث بعد ذلك الوعد الذى ألزمت نفسى به وكان من العسير أن يقف أى شئ حائلاً بينى وبين الوفاء بذلك الوعد الذى تم بين إثنين فى ظروف غير عادية لكننى حتى تلك اللحظة لم أكن قد فكرت فى خطة بعينها .

هز رأسه وكأنه عرف ما دار بذهنى وأصبح مسروراً ثم إستطرد : إن الأشياء لا تحدث دائماً كما تخطط لها ففى الحياة كثير من خيبات الأمل ودائماً ما تفاجئك أشياء غير متوقعة .. هكذا هى الحياة ونحن لسنا آلهة .. هل تفهمنى ؟ .. إن الواحد منا لا يستطيع معرفة ما سوف يحدث فى الغد وهكذا لا يجب أن نفعل شيئاً سوى التصميم والإرادة .. الإرادة الخالصة وكذا الإيمان بالله فلا تهمل صلواتك خاصة وأنك رجل العائلة وأن الآخرين سيتطلعون إليك .. سوف تكون مسئولاً تجاه نفسك وتجاه الآخرين فلا ينبغى أن تخيب ظنونهم .

هز رأسه مؤكداً : أبداً .. أبداً .. لا تخيب ظنونهم !!

أصابتنى الحمى ذلك المساء وطوال الليلة واليوم التالى كان جسدى ساخناً ولم أكن خلال الهذيان أرى شيئاً سوى وجه أبى وأمى بالقرب من السرير وعندما شفيت فى اليوم الثالث سمعت المسيحية المتوحشة تقول : ماذا حدث ؟ .. هل كانت الحمى سبباً لما دار بينك وبين أبيك من حديث ؟

كنت أعرف أن ما قالته هو الصواب فلقد أثقل حديثه رأسى لكننى قلت : لا شئ .. لا شئ .

وفشلت أن أعرف كيفية أن يؤدى أحد الأشياء ببساطة إلى شئ آخر !!-- بسبب مرضى تأخر إلتقاط الصور وبعد شفائى جاء المصور وبدأ بهدوء فى عمله .. إرتدى إسحق أجمل ثيابه وتم تصويره بمفرده مع شجيرات الحديقة والزهور والأغصان الجميلة ثم مع المسيحية المتوحشة وبعد ذلك مع كل منا على حده وأخيراً جمعتنا صورة واحدة .

عاد إسحق إلى حجرته وقد تغيرت ملامحه وتم تصويره بين جدران الحجرة وهو جالس مرة وواقف مرة أخرى دون أن تفارقه إبتسامته العريضة ثم طلب من المصور الإسراع من الإنتهاء من الصور الليلة .

تعجب المصور واعترض قائلاً : لا أستطيع إلا غداً مساءً .

عدت إلى السرير متعباً فثمة آثار خفيفة كانت متبقية من الحمى راحت تزول تدريجياً وبدأت أنظر شيئاً فشيئاً عودة الروتين القديم .. الضوضاء ،

الإبتهاج والسرور ، النكات والمرح ، زيارات الحجرة الأمامية وغياب المسيحية المتوحشة الدائم من المنزل وبقائها فى الدكان .

أصبح المنزل طبيعيا وعادت الأشياء إلى ما كانت عليه ففكرت ان كل ماحدث كان فقط من تأثيرهذيان الحمى .

كنت أراقب إسحق فأبصرته متحيراً بشدة .. كان متعجلاً الحصول على الصور وهاهى الآن معلقة فوق الحائط فى إطارات من الخشب .

عدت بذاكرتى إلى الخلف قليلاً فعرفت أن ثمة شئ قد تأجل وأحسست بأننى أقدم الشكر والإمتنان للقوى غير المرئية .

(١٢)

- كانت مدرسة «أبيوكوتا» الثانوية عالماً جديداً لم أتعوده من قبل .. كانوا كباراً وكان من الصعب التفرقة بينهم وبين المدرسين إلا بالقمصان الزرقاء والزى الكاكى .. أوه .. كان الأب على حق .. إنهم يبدون كالرجال بل إن بعضهم كذلك فعلاً .

كانت كتبى الجديدة جميلة وشيقة وكذا الكراسات والأقلام الرصاص ونشافة الحبر وبعض الأدوات الأخرى لكننى فقدت نصف هذه الأشياء فى الأسبوع الأول وكانت الآله الحاسبة المتلألئة هى أفدح الخسائر وأيضاً كان الفرجار والمربع والمثلث ونصف الدائرة الشفافة ذات العلامات الغريبة .. آهـ .. إن عقاب الخسارة سيكون مؤلماً .

سرق الولد الكبير الحقيبة بعد أن تجاهلت كل النصائح ولم أحفر إسمى على الحقيبة المعدنية المسطحة .. كانوا جميعاً يعرفون أن الولد الكبير هو الذى سرق الحقيبة وكذلك كان هو يعرف بأننا نعرف .

لاحظت أفعالاً وتصرفات غريبة فى ذلك العالم الجديد .. كان وسطاً مليئاً بالحكايات ولم يكن معقولاً أن يسرقوا أدواتى الهندسية هكذا أمامى وأثناء الدرس .

رحت بالغريزة وحب الإستطلاع أدرس زملائى الجدد عن قرب .. إبتكرت طرقاً مختلفة للحياة بينهما وكنت أتطلع بشغف لزيارتى القادمة إلى «إيسارا» لمقابلة الرجل العجوز العالم بالأمور وشعرت بوجوب معرفة زملاء مدرسة

«أبيوكوتا» القادمون من منازلهم من أجل العلم والمعرفة .

قبل إنتهاء العام لم أكن فى حاجة إلى ملاحظات المسيحية المتوحشة كى أعرف بأننى كنت أجنح كثيراً إلى أحلام اليقظة .

- عند إلتحاقى بالمدرسة كان (داودو) مسافراً فى بلاد الإنجليز كمسئول تربوى عن غرب أفريقيا فتولى السيد (كوفوريجى) مدرس الرياضيات إدارة المدرسة .. كان معروفاً باسم (وى ..وى) ولم يكن هذا الإسم يعنى شيئا بالنسبة لنا حتى أصبح مديراً للمدرسة وراح يتجول بحلته الأنيقة فى أرجاء المدرسة .. كان ذو صوت رفيع يحدق بعينه هنا وهناك وكانت قامته كالدجاجة التى تلتقط المحصول حين يظهر فجأة فى الفصول لمتابعة الدرس والعصا دائماً فى يده .

كان (وى.. وى) نشيطاً يحب النظام ولا يكف عن المتابعة .

- مدرسة (أبيوكوتا) الثانوية ، عنبر النوم الكبير ، المخابئ ، الطرقات ، الأشجار الكبيرة والصغير حول الملاعب وتلك السياج الكئيبة التى تفصلنا عن العالم الخارجى .. كانت الرغبة فى تحطيم تلك السياج جامحة وكذلك الرغبة فى الهرب تنتابنى أثناء فترات ممارسة الرياضة وفترات الراحة فقط لكنها لم تكن تتولد فى الفصول أو فى صالة الإجتماعات أو فى مكتب مدير المدرسة .

كان المشرف يواصل جولاته الليلية فتصيبه الحيرة أحياناً حين لا يجد الطلبة أو يبصر سريراً خالياً من صاحبه .

كان الولد الكبير الذي سرق حقيبة أبيه .. كان أبوه ثائراً حين جاء إلى المدرسة متوجهاً إلى مكتب المدير وما أن عرف الولد بوجود أبيه حتى حزم حقيبته وهرب دون أن يعود مرة أخرى ولقد سمعنا فيما بعد أنه لم يعد إلى المنزل .. ذهب إلى «لاجوس» والتحق هناك بأحدالوظائف وكان من وقت لآخر يأتى إلى المدرسة القديمة مرتدياً أحدث الأزياء وأفخم الملابس مقدماً لزملائه العون.. جاء فى يوم ما إلى المدرسة ليقول وداعاً لأن والده سيرسله للدراسة فى إنجلترا .

- كانت الفضيحة الكبرى تتمثل فى الفتاة الحامل وكان شيئاً عادياً أن يتسبب (أ . كينزى) فيما حدث للفتاة لكنها المرة الأولى التى يصمم فيها والد الفتاة على طرد الجانى من المدرسة .. إهتمت الإدارة بالأمر وتناقشت مع والد (أ . كينزى) الذى كان من عائلة هامة فى «إبيوكوتا» .. كان (أ . كينزى) محبوباً من الجميع ومتأنقاً حتى فى زى المدرسة وكان يمشى بخيلاء مما جعل الأولاد الأصغر سناً يقلدونه بطريقة لطيفة .. كان يختال فى سيره فوق الرصيف وكأنه يعلن عن إسمه أو يعلن عن وصوله لكن السيد (كوفوريج) كان يجد صعوبة فى طرد أى طالب وخاصة إذا كان فى عامه النهائى وكان يرى أن يصبح العقاب شديداً من أجل العبرة .

كان العقاب شديداً فى مدرسة «أبيوكوتا» .. ستة وثلاثون ضربة .

إصطف الحاضرون فى الصف الأمامى من القاعة العمومية وصعد السيد (كوفوريجى) المنصة معلناً عن سبب الإجتماع ثم عبر عن الصدمة التي أصابت المدرسة كلها من جراء تلك الفضيحة وما أصاب عائلة الفتاة من تعاسة .. أعلن عن إسم الجاني وأمره بالوقوف والمجئ إلى المنصة ثم إتجه ناحيته وأخبره أن يختار بين طرده من المدرسة وتلطيخ إسمه للأبد أو ضربه ستة وثلاثين ضربة بالعصا أمام الحاضرين .. إختار الرجل الصغير الضرب فأصدروا إليه الأمر بالإنحناء حتى يلمس أصابع قدمه وكان أحد المدرسين يعد الضربات بينما (وى .. وى) بدأ فى تغيير العصا عند نهاية الأثنى عشرة ضربة الأولى دون أن تتحرك عضلة واحدة من (كينزى) وكان (وى .. وى) أثناء ضربه الآثنى عشرة ضربة الثانية يمسح العرق المتصبب فوق وجهه وبدأت ضرباته تفقد قوتها عند بداية الضربة الرابعة والعشرين فشعرت أن (كينزى) سيدخل التاريخ .. كانت كل الأنظار متجهة إلي جسد (كينزى) ولم يستطع أحد أن يصدق أنه تحمل أربعة وعشرين ضربة فوق ظهره وأردافه بدون أن يغير ولو مرة واحدة من وضعه أوبدون أى رعشة فى عضلاته .

تعجبت وقلت لنفسى : ربما يحشو جسده بشئ ما .. لابد أنه يضع شيئاً تحت ملابسه .

سارع (وى ..وى) برفع ظهره وشد بنطلونه للتأكد من عدم وجود أى شئ ثم واصل ضرباته الأخيرة بكل قوته وكان العرق يتدفق منه بغزارة حين نهض (كينزى) بهدوء وهو ينحنى برشاقة مرتلاً بعض الأناشيد الدينية .

قال (كينزى) : شكراً سيدى .

فدوت القاعة بالتصفيق والتهليل .. دق المدير بيده فوق المكتب دقات قوية وأمر بالهدوء بينما خطف مساعده الجرس وظل يلوح به بقوة فأضاف صوتاً جديداً إلى أصوات التصفيق والإبتهاج .. كانت الأصوات تتصاعد شيئاً فشيئاً فى موجات متلاحقة وحين ساد الهدوء حدّق (وى .. وى) فى الجميع وتمتم قائلاً [1] * Eyin omo Satani .. إن الخجل لا يُصلح البلهاء .. إنه Awon omo alaileko ! * [2] .. إخرج من هنا

إنصرف الجميع وتفرقوا .

– عاد (وى .. وى) مدرساً للرياضيات بعد عودة (داودو) من مهمته فى إنجلترا .. إستقبله الناس فى «أبيوكوتا» بالترحاب .. كان يمتطى حصاناً أبيض فى «آكية» فى طريقه لكنيسة القديس بطرس وكان نافخوا البوق يحيطون به وكذلك حاملوا الطبول وصفوف من الكشافة مما يوضح أهميته غير العادية بعد أن أصبحت أعماله ومآثره فى إنجلترا معروفة على نطاق واسع .. كانوا يتحدثون عن كفاحه ضد الخطط البريطانية التى طالبت بإنشاء جامعة واحدة فقط لمستعمرات غرب أفريقيا وكيف أنه أصر على إنشاء جامعة فى كل مقاطعة .

– لم يهتم (داودو) بغواصات هتلر التى لم تفرق بين السفن الحربية

---

* (1) أبناء شياطين .

* (2) نقص فى التربية .

وغيرها من السفن وعاش بعد قنابل هتلر الشيطانية وعبر البحر مرتين برغم الأخطار .. كان يمتطى الحصان فى «آكية» وكان وجوده يبعث على الرهبة حتى لضابطالمقاطعة وعند مروره فى أى مكان كان الرجال ينبطحون وكانت النساءتركع ويبدأون جميعاً غناء النشيد الوطنى بمساعدة مدرس الموسيقى .

دائماً ما كنت أغنى ذلك النشيد فى المنزل .

كان (داودو) بارعاً فى إشرافه على إقامة النشيد الوطنى فى المدرسة .. كان يبذل مجهوداً كبيراً فى المعالجة الموسيقية حتى يتصبب العرق من تحت إبطه على شكل دائرة تأخذ فى النمو إلى أن تصل صدره .. كان بسهولة يلتقط بأذنيه أى صوت خطأ ويعرف الصف المخطئ أو الفصل المتسبب فى الخطأ فيعاقبهم بضرب العصا .

بعد ظهر أحد الأيام كنت أعبث بالبيانو فسألنى (داودو) : لماذا لا تتعلم العزف على البيانو جيداً ؟

كنت خائفاً من عصاه حين كذبت عليه قائلاً : إن أبى قد بدأ فى تعليمى.

- كانت مجموعة من النساء تتجمع عند السيدة "كوتى" وكن يناقشن مشاكلهن وما يتعرضن له فى المنازل وكانت المسيحية المتوحشة واحدة من أعضاء تلك المجموعة.. كنت أنتظرها بعد المدرسة لأعود معها وكن يتجاهلن وجودى وهن يتحدثن ويشربن الشاى .. كن زوجات لرجال الأعمال والمدرسين والصيادلة والقساوسة وجميعاً كن مسيحيات يتحاورن أحياناً حول أسعار السلع والبضائع والنقص الناتج فيها وكانت مسئوليات الخدم تشغل مساحة

كبيرة فى أحاديثهن وكثيراً ما كن يكررن : إن الخدم لا يعرفون ما يفعلون ولا يفهمون وضعهم فى المجتمع وبعض منهم لا يحسن ترتيب الأشياء أو رعاية الأطفال .

كان (داودو) يتجول ذات يوم بالقرب من تلك المجموعة حين توقف مقاطعاً : أنتن معشر النساء لديكن أهداف سامية ولكن لا يبدو أنكن تعرفن كيفية القيام بها .. إنكن نجتمعن لبعض الوقت ولا أرى سوى [1] * oníkaba لكن من يحتاج للمساعدة منكن حقاً هم [2] * aróso وأنا لا أرى أحداً منهم .. يجب أن تنسوا مشاكل المجتمع الراقى وتفكروا بالaróso .. إدعوهم للمشاركة فهم فقط الذين يحتاجون المساعدة .

قال (داودو) ذلك ثم راح يواصل جولاته .

تطلعت السيدة ذات الشعر الأبيض نحوهن بوقار وقالت : إن (داودو) لم يقل غير الحقيقة وعلى كل واحدة منا أن تحضر معها فى المرة القادمة واحدة على الأقل من الفقيرات .

---

* (1) النساء اللاتى يرتدين الفساتين الراقية .

* (2) الناس الذين يرتدون اللفائف والأغطية الفقيرة .

(١٣)

- إنضم كثير من النساء إلى إجتماع المجموعة وأصطحبت المسيحية المتوحشة صديقتها ماما (أدونى) فلم تعد صالة طعام السيدة (كوتى) كافية لإستقبالهن فإنتقلن إلى الفناء .

كانت رؤية الفناء يسيرة من نوافذ الشرفة الفسيحة حيث إستطعت التعرف على النسوة اللاتى إحتشدن فى الإجتماع كأسراب القطيع .. كنت أتطلع من النافذة ممعناً النظر لما تذكرت «إيسارا» والباعة المتجولين والسيدة التى كانت ترافقنا وتضع البضائع تحت تصرفنا .. كانت الخلافات دائماً تنشب بين (بيير) زوجة (كوتى) و(ماجبور) ذات الشعر الأبيض والمسيحية المتوحشة وأحياناً كانت إحدى النساء تغنى فجأة أو تبدأ فى سرد قصة بذيئة ، وكان بعضهن يصل مبكراً لإعداد الطعام .

كان بمقدور (داودو) أن يستمع إلى مايحدث فى الإجتماع من خلال حجرة نومه ومكتبه لكنه لم يكن يتحرك نحو الفناء إلا عندما يرى ضرورة للتدخل .

قال ذات يوم : هل تعرفنى متاعب الفقراء الحقيقية ؟ .. إنهم غير متعلمين ولا يعرفون القراءة والكتابة ولهذا يستغلهم الناس ومن هنا يجب أن نبدأ .. فلنبدأ بالنساء الفقيرات .. نصف ساعة فقط من وقت الإجتماع ، نصف ساعة من كل إجتماع تكفى لأن تصبح كل نساء «إيجبالاند» متعلمات قبل نهاية العام .. هكذا أرى فالجهل شئ بشع .

إبتسم ومضى يواصل تجواله .

سيطرت الفكرة على النساء المجتمعات وسرعان ما بدأن فى التطبيق .. أحضرن الألواح والأقلام الرصاص والكتب والكراسات .

كنا نرى من أعلى النافذة ظهوراً تنحنى فى تركيز شديد ورءوساً ذات أغطية مختلفة يحشوها الشعر الأبيض .

كن جميعاً يعملن فى هدوء مع بعض الضحكات المفاجئة الناتجة عن مزاح المسيحية المتوحشة التى كانت تمد ذراعها وتشير إلى لوح الكتابة معلنة بصوت مرتفع : هكذا .. إنظرن .. أكتبن هكذا .. لا .. لا .. يجب أن يكون القلم مستقيماً .. والآن فلترسمن شيئاً كالطريق المنحنى .. لا .. لا .. ليس كذلك .. ألا تعرفن كيف تكون بطن المرأة الحامل .. هكذا " b " .. البطن المنتفخة أسفل الخط المستقيم .

كانت ماما (أدونى) أو السيدة ذات الشعر الأبيض تشد المسيحية المتوحشة بعيداً فلم تكن تعجبهن تلك الطريقة فى الدرس وعندئذ كان الفناء يمتلئ بالضحك .

كانت إحداهن تقول : أوه .. أنت يازوجة المدرس بارعة فى إفساد التلميذات .

ـ كانت التلميذات حاذقات وكثيرات منهن كن فى عمر الشباب يأتين سيراً على الأقدام من « إيجبين » حتى «آكية» وكان ذلك يكلفهن مجهوداً كبيراً غير أنهن كن يصلن قبل الأخريات ويساعدن فى ترتيب الطاولات والكراسى ثم يكنسن الفناء .

كان (دولوبو) و(كوى) أكبر أبناء (كوتى) يشاركان فى التعليم ومن مكانى المعتاد فى النافذة رأيتهما يتلاعبان بالحروف والكلمات ويكتبان بطريقة خطأ .. هتفت بأعلى صوتى من النافذة منبهاً عن الصواب فهتف الجميع من الفناء قائلين : هل أنت كسول ؟ .. لماذا لا تأتى وتشاركنا ؟

هبطت السلم بسرعة خاطفة وأصبحت بالصدفة مدرساً فى تلك الحلقات .. إكتشفت أن أكثر النساء من القرى البعيدة المنعزلة فعرفت سر إقبالهن الشديد وذلك الشغف المرتسم على وجوهن من أجل المعرفة .

توقفت النساء عن الحضور مبكراً حتى اللاتى يأتين من أماكن قريبة وأحياناً كن لا يأتين أبداً فقد كان وقت الحصاد .. ظن القادة أن المزارع قد صرفتهم عن الدرس لكنهن عدن مرة أخرى ورحن يقدمن الإعتذارات .

قالت إحداهن : لقد قبض علىّ رجال الضرائب .

ثم توالت الأصوات :

- لقد أخذ (١)*Parakayi نصف إنتاج مزرعتى لضريبة السوق فذهبت إلى نائب المجلس المحلى طلباً للمساعدة .

- كنا فى الطريق إلى المزرعة حين أوقفنا البوليس وطلب جزءً من كل ما معنا كضريبة .

- حاولت أن أهرب من الرجل ذى الزى الغريب فضللت الطريق

(١) مراقبو السوق .

ولولا رعاية الله لكنت حتى الآن أتخبط فى الغابات .

• إن أولئك الرجال بلا قلب .. إنهم قساة ينظرون إلينا كما لو أنهم لم يروا إمرأة من قبل .

• أمضينا الليلة فى قسم الشرطة حيث حجزوا على كل بضاعتنا حتى نأتيهم بأوراق الضرائب .. لم نذهب مرة أخرى إلى السوق بعد أن إحتجزوا كل البضائع فكيف إذن نستطيع أن ندفع لهم بدون أن نبيع ؟

• إنهم أولئك الرؤساء الذين يرسلون (٢)* adana للقيام بأعمالهم القذرة لأنهم لا يستطيعون فرض ضريبة على إنتاج المزرعة .

• لا .. إنه آلاك .. إنه القصر .

• إنه الرجل الأبيض .. إن (٣)* ajele هو الذى يصدر الأمر .. إنه الرجل الأبيض فى لاجوس أما الآخرون فهم عبيد للرجل الأبيض فى لاجوس .

قالت (كيمبيرى) : كفى

تأملتها قليلاً وتذكرت أن هذه المرأة تحمل إسماً مسيحياً .. إن إسمها (إميليا) لكننى كنت أسمع المسيحية المتوحشة و(بيير) يشيران إليها باسم (كيمبيرى) وعندما أشرت إليها بنفس الإسم صفعتنى أمى بظهر يدها

* (1) الوكلاء المنتدبون لمراقبة الفلاحين ونساء السوق .

* (2) الوكيل الإدارى أو ضابط المنطقة .

بقوة واعترضت (بيير) قائلة : لا تكرر هذا الإسم مرة ثانية .

ثم أضافت : إن (كيمبيرى) لقب خاص تطلقه عليها زوجات الحى الذى تقطن فيه وحتى أنا وأمك لا ندعوها بهذا اللقب إلا عندما نكون وحدنا .

كررت (كيمبيرى) قائلة : كفى

أصيب الجمع بذعر شديد وبدأ السخط والتذمر ثم إستطردت (كيمبيرى) : عن أى شئ تتحدثن ؟ وما هذا الذى أسمعه ؟ .. هل فقدت نساء «إيجبالاند» حرية السير فى شوارع أرضهن ؟ ألا يستطعن ممارسة حياتهن بدون مضايقة أولئك مصاصى الدماء ؟

لوحت بيدها ثم خاطبت (بيير) زوجة السيد (رانسوم كوتى) : هل سمعت ؟ .. ماذ نستطيع أن نفعل ؟ ها نحن نعلمهن القراءة والكتابة للعناية بمنازلهن وأطفالهن والآن لا يستطعن الحضور إلى هنا بسهولة .. إن الشوارع مليئة بمن يعترضهن ويقف حائلاً بينهن وبين الحضور .. يجب أن نوفر لهن الحماية .. على أى شئ تكون الضريبة ؟ ماذا يتبقى لهن بعد إطعام الأولاد وتوفير زى المدرسة ودفع مصاريف المدرسة ؟ إذن .. لماذا وكيف يدفعن الضريبة ؟

إنطلقت الأصوات هادرة فطلبت (كيمبيرى) الهدوء وإستطردت : لامزيد من الضرائب.. لنخبرهم بذلك .

علت الأصوات بالقبول والإستحسان ثم إختاروا السيدة (كوتى) لمهمة تقديم طلب إلغاء الضرائب إلى ضابط المقاطعة وقصر آلاك فى

«أبيوكوتا» .

تذكرت «إيسارا» وتلك المرأة التى تسير أربعين ميلاً محملة بالبضائع فوق ظهرها وكتفها وكأنها omolanke* فأصبحت إهانتها هى ومثيلاتها تعد إهانة شخصية لى وقررت قبل أن أغرق فى النوم أننى عندما أصبح كبيراً لن أترك الرجال الحكوميين الذين يرتدون الكاكى يأخذون بنساً واحداً كضريبة من راتبى الكبير .

كانت مجموعة النساء تجتمع فى الدور العلوى وإستمر الإجتماع حتى وقت متأخر فرحت فى نوم عميق فوق الدكة فى حجرة الطعام وحين إستيقظت فى الصباح التالى وجدت نفسى فوق السرير فى فصل السيدة (كوتى) وسمعت أثناء الإفطار لأول مرة التعبير التالى :«إتحاد نساء إيجبا» .

بعد إعلان الإتحاد بأيام قليلة سافرت (بيير) إلى إنجلترا رغم الحرب لحضور بعض المؤتمرات الدينية أو لمهمة خاصة بالمستعمرات فأصبح د كان المسيحية المتوحشة هو البؤرة التى تتجمع عندها النساء من كل أركان «أبيوكوتا» وصارت ماما (أدونى) تتجول فى كل وقت وبكل مكان كالمارشال بصحبة النساء اللاتى يأتين من مختلف الأماكن القريبة والبعيدة ومختلف قطاعات المدن والقرى البعيدة التى لم يسبق أن سمعت عنها أبداً .

كنت دائماً أهرب من العمل فى الدكان أما الآن فلم يكن من السهل الابتعاد عنه .. كانت بعض النساء تأتين إلى الإرسالية لأول مرة فكنت أقفز

---

* العربة المجرورة أو المدفوعة .

من فوق كتبى وأرافقهن إلى الدكان وفى الطريق كن ينظرن إلىّ ويتعجبن من ذلك الولد كثير الأسئلة لكننى كنت أواصل تساؤلاتى دون خجل .

قلت لذات الكتف المنحنى من حمل البضائع : لماذا لا تمتطين جياد الرئيس في «أوتوكو» ؟ .. إن الجياد تستطيع أن تحمل البضائع !!

ضحكت المرأة ووعدتنى أن تناقش الأمر مع ماما (ألونى) فى الإجتماع المقبل .

ساد الهدوء فترة طويلة ولم يخبرنى أحد عن موقف النساء من الضرائب .. هل توقفن عن الدفع أم لا ؟ .. وكنت - رغماً عنى - أستمع إلى المناقشات بين إسحق والمسيحية المتوحشة التى كانت تطلب منه النصيحة فى كثير من المشاكل .. كانت الحركة النسائية تزداد كل يوم فأصبحت المسيحية المتوحشة تسافر إلى مناطق مختلفة لتلتقى بالنساء وتستقبل القوم والعشائر وتعقد الندوات .. كانت قبل أن تغادر تنبهنى إلى ضرورة الإهتمام والعناية بالدكان وغالباً ماكنت أغلقه عند غروب الشمس لكنها كانت تعود متأخرة بعد موعد الوجبة الأخيرة وتواصل حديثها مع إسحق عن خطط الحل العاجل لمشاكل أولئك الضحايا من النساء .

كنت شغوفاً بتناول نصيحة إسحق وإعطائها لأمى فى الدكان وأحياناً كنت أفتح الورقة وأقرأها لمعرفة أهمية النصيحة فلم يكن من السهل أن أتحكم فى شغفى وحب إستطلاعى الذى كان ينمو ويتفجر برحيلى مع المسيحية المتوحشة بصحبة المتظلمات وصاحبات الشكوى .

ـ سافرت خارج «أبيوكوتا» للمرة الأولى بدون أبي أو أمي .. كان أبى يقوم بإعدادى للالتحاق بكلية الحكومة في «أبادان» وبعد أن إجتزت الامتحانات بأسابيع قليلة جاءنى خطا إستدعاء للمقابلة فى «أبادان» حيث تعرفت على (أوى) وبدأنا نخطط لمغامراتنا الكبيرة التى سنقوم بها معاً .. كانت ماما وإسحق يعرفان تماماً بأننى لن أتوقف عن المغامرات وجلب المتاعب فاقترحا إرسال رفيق معى .

قلت لهما : تذكروا أننى فى العاشرة من عمرى الآن ولقد أمضيت ستة أشهر من التجربة فى مدرسة أبيوكوتا الثانوية دون أن يحدث شئ .

كان الولد الآخر أكبر منى لكن والديه وافقا على سفره وحيداً بعد أن عرفا أنه سيذهب مع إبن الناظر .. كان (جوزيف) مرشحاً لمرافقتي فناقشت الأمر معه قائلاً : إن (أوى) سيكون معى ولقد إعتبرنى والداه ضماناً كافياً لسلامته وأمنه أفليس هذا كافياً لأن أعتنى بنفسى ؟

نظر (جوزيف) نحوى بشفقة وقال : ليت الرجال البيض في مدرستك الجديدة يكونون من المحبين للأولاد كثيرى الجدل والنقاش !؟

أعلنت النتائج النهائية وكان إسمى فى القائمة .. لقد قبلونى ولكن ليس للمنحة الدراسية فكان ذلك يعنى أن أنتظر عاماً آخر ومحاولة أخرى .

فكر (جوزيف) مدة طويلة وكانت تطارده الأفكار السوداء حين ذهب للمسيحية المتوحشة وقال : ماما .. أرجوك أن تتوسلى إليه ألا يتناقش كثيراً مع الرجل الأبيض ويجب أن يقلل من أسئلته فقد يقبلون ذلك منه لكونه ذكياً

وماهراً ولكننى لا أعتقد أنهم سيتركونه يمزق رءوسهم إلى قطع صغيرة بأسئلته.

كان نجاحى فى المقابلة وسفرى بمفردى إلى «أبادان» يمثل أملاً كبيراً بالنسبة لى لكن الرغبة سرعان ما توارت فى مؤخرة رأسى حين تذكرت أننى سأفتقد الإرسالية التى نعيش فيها وحدائق الفاكهة وجداول الماء والمزارع وبعض الألعاب الصغيرة.

- كان حب إستطلاع (رانسوم كوتى) وفضوله بلا حدود .. قال لى : إن المدرس الأبيض لا يستطيع غرس الأخلاق فى التلميذ وتنمية شخصيته لكن مدرسة مثل مدرسة أبيوكوتا الثانوية تفعل ذلك .. كيف ترى أولئك المدرسين البيض ؟

قلت له أننا لم ندرس شيئاً حتى الأن لأننا مانزال فى مرحلة الإختبارات والإعداد لإمتحانات القبول.

فأجاب : نعم .. لكنهم يتحدثون إليكم وتتحدثون أنتم معهم فما هو إنطباعك عنهم ؟

• يبدو أنهم ظرفاء لكننى مازلت أجد صعوبة فى فهمهم .. نحن جميعاً لا نستطيع أن نفهمهم بسهوله لأنهم يتحدثون من أنوفهم.

• سوف تعتاد على ذلك كما حدث لى .. لقد عرفت الرجل الأبيض فى وطنه .. إن بعضاً منهم ليس شيئاً ولكنهم كمدرسين .. لا .. أنا لا أعرف لماذا

يريد (آيو) أن يرسلك إلى مدارسهم !!

قلت دون تفكير : إننى الآن أحب المكان .

تلألأت عيناه وقال : هل يروقك المكان حقاً ؟

- أعتقد أننى أحبه ياعمى أو يبدو أننى سأحبه .

نظر إلىّ كما لو أنه يرانى لأول مرة ثم قال وهو يحدِّق فىّ : حقاً ...... لكنك لم تمكث عاماً كاملاً هنا حتى تستطيع أن تقرر .

قلت بإصرار : أنا أحب المدرسة وأتمنى لو إستطعت الحصول على المنحة الدراسية .

قال بغضب : إننى أحاول فقط أن أجد ميزة واحدة ولكن لايهم ..... إن (آيو) يتمنى حصولك على المنحة وسيكون ذلك شيئاً حسناً بالنسبة له لكنك ستراني فى كل أجازة وعندئذ أريد منك معرفة تفاصيل الدراسة وكيفية قيامهم بالتدريس .

وعدته أننى سأفعل فاستطرد قائلاً : سيعلمونك أن تقول «سيدى» .. إن العبيد فقط هم من يقولون «سيدى» لكنها أحد أساليبهم فى تنمية شخصية الأولاد فى هذا السن .. «سيدى» .. السيد .. السيد .. السيد !! شئ سئ للغاية وعلى أية حال فإنك سوف تأتى لترانا فى الأجازة .

تذكر شيئا آخر فقال : إنهم أيضاً لا يستخدمون العصا وهذا خطأ كبير

- لا أعتقد أيها المدير .
- ألا تعتقد بأهمية العصا فى تكوين الشخصية ؟
- لا .. أيها المدير .
- أوه عزيزى .. أوه .. هل أنت إبن (إينيولا) الوحيد بين الناس ؟
- لا .. أيها المدير .

تنهد قليلاً وهز رأسه مرة أخرى بحزن وإكتئاب ثم واصل سيره نحو الطرقة .

ـ كانت (بيير) فى إنجلترا وكانت الصحف فى الصباح تشير إلى أنشطتها هناك حيث قالت فى أحد المؤتمرات أن نساء «إيجبالاند» يعانين من الفقر وكيف أنهن تعيسات .. أفردت إحدى الصحف مقالاً طويلاً عن إدعاءاتها وهاجموها لقول مثل تلك الأكاذيب حتى إعتبرها البعض خائنة لنساء وطنها ودعا المقال الشعب البريطانى لزيارة «أبيوكوتا» بأنفسهم لرؤية النساء المتيسرات ومعرفة المستوى اللائق الذى تعيش فيه نساء «إيجبا» والتأكد من وفرة المستشفيات ونظافة الشوارع وجوده المساكن .

قاموا بتحذير السيدة (رانسوم كوتى) بالابتعاد عن شئون النساء وعدم الحديث عن أحوالهن وأن ذهابها لإنجلترا لا يعنى أن تتدخل فيما لا يعنيها لأن ذلك الشئ خاص بالرجل الوحيد الذى يقوم بأعمال الخير .. إنه الرجل فى قصر «أبيوكوتا» الذى يعتبر أباً لكل الناس فى «إيجبا» .

نظمت المجموعة إجتماعاً توافدت إليه النساء من كل صوب للإتفاق على رد مناسب لذلك الهجوم .. كانت نفس الصحيفة قد كتبت تحت توقيع باسم (أونلوكر) تقول بأن الكاتب يؤيد كل ما أعلنت عنه (بيير) ولفت إنتباه القراء إلى الأكواخ والعشش العديدة المنتشرة فى «إيكيرودو» و «إيبيريكودو» و «آجو» حيث تعيش النساء كالفئران .

تناولت (ماإجبور) ذات الشعر الأبيض الصحيفة وقرأتها على الجميع فانطلقت صيحات الإستحسان فى الهواء ثم جاء دور (كيمبيرى) فى الكلام : إن صحيفة أخرى كتبت تقول أنكن جميعاً مليونيرات كما يقول أولئك الأوباش فى القصر الذين جمعوا ثروة من jibiti *[١] ومازالوا يختالون داخل وخارج القصر موشحين بالحلى والذهب .. لقد نسوا أنهم يعيشون بين أولئك الذين لا يستطيعون إطعام أطفالهم مرتين فى اليوم .. إن (بيير) على أية حال توشك على العودة وعندئذ سيعرف شعب «إيجبا» من يكون odale *[٢] الحقيقى .

ـ كان (داودو) يتجول وسط عاصفة من الضحكات المتتالية قابضاً بيده على نسخة من كلام (أونلوكر) حين قال : ماذا يجب أن تفعلن أيتها النساء ؟

أقترح طبع مئات من النسخ تكون معكن لتوزيعها فى الميناء عند مقابلة (بيير) إرتفعت أصواتهن بالموافقة ثم بدأن الإجتماع من جديد بينما راح

---

* (1) الغش والخداع والإحتيال .
* (2) الخائن .

(داودو) يواصل تجواله لكنه عاد بعد عشر دقائق قائلاً : ألف نسخة .. نعم ألف نسخة لكل من يهبط من الميناء .. لكل الناس خاصة لأولئك القادمين للقصر .

أبدت النساء إستحساناً للمرة الثانية وإرتسمت على وجوههن علامات الرضا والقبول ولم يكد (داودو) يصل إلى نهاية الطريق حتى عاد مرة أخرى بنشاط وسرعة وقال : عشرة الاف نسخة .. نعم .. عشرة آلاف نسخة وسوف نجد النقود بطريقة أو بأخرى .. عليكن ببعثرتها فى الهواء لتنتشر رغم أنف الحكومة الإستعمارية فى لاجوس .. نعم .. عشرة آلاف نسخة .

أوشكت (بيير) على العودة فراح (داودو) يعد نفسه للترحيب بزوجته ولم ينسى أى شئ .. طلب أباريقاً ضخمة للماء لرش الإرسالية كلها بالماء وتناقش مع المسيحية المتوحشة وقيادات المجموعة الأخرى عن كيفية توفير الطعام لكل الراغبين فى الحضور إلى الإرسالية .

فكرت فيما يدور برأسه واعتقدت أن (داودو) كان حريصاً على أن تكون عودة زوجته للوطن إنتصاراً كبيراً يبدأ من لاجوس حتى يعرف أولئك الذين ينتقصون من شأنها من هو الخائن الحقيقى .

(١٤)

ـ بعد عودة السيدة (كوتى) أقاموا مهرجاناً كبيراً فى مدرسة «أبيوكوتا» والمنطقة المحيطة بها .. أصدر (داودو) الأمر بإحضار مئات من المصابيح وكانت قوائم الخيزران منتصبة بإمتداد الطريق .. جهزوا مطبخاً كبيراً حول الحقول مضاءً بالمصابيح وكذلك كانت عوارض الأعمدة الكبيرة متلألئة بالإضاءة التي إنعكست على المقاعد والموائد فى الحديقة فبدا الليل وكأن ملايين الحشرات المضيئة العملاقة قد غزت الإرسالية .

كانت الصوانى الضخمة والأوانى والأطباق والسلال تتحرك عبر الضوء محملة بالطعام وكانت الأغانى تتردد فى المكان وكلما ظهر (داودو) أو (ببير) فى أى جزء من أجزاء الإرسالية كانت الهتافات تردد : « داو .. و .. و .. و .. و .. ، بيـ .. يـ .. يـ .. يـ »

تدفقت مجموعات النساء إلى الإرسالية دون إنقطاع وكانت دقات الطبول تتقدم بعض المجموعات التى سرعان ما إنتشرت فى المكان معبرة عن إختفائها بقدوم (ببير) بالرقص والغناء .

لم يسبق أن رأيت (داودو) فخوراً بنفسه هكذا .. كنت ألاحظه بدقة كلما إقتربت منه فبدا لى وكأننى أرى حدثاً نادراً .. كان رجلاً كبيراً تبدو عليه السعادة دون خجل ولأول مرة أشاهده يتقدم بصدره للأمام متجولاً من جانب إلى آخر وهو يمسك بالعصا الضخمة بين يديه .

كان يبقى كثيراً فى الدور العلوى مكتفياً بالنظر من النافذة ولم يكن يهبط

إلا قليلاً لإصدار الأوامر والتعليمات وللإشارة إلى بعض الأشياء الخاصة .

كان من الواضح تماماً أن (داودو) صديق كبير لإتحاد النساء .

ـ إتسمت إجتماعات النساء بالجدية والسرعة وكان إسحق يعيد صياغة ما يكتبنه بخطه الجميل ويدفع بالورقة ناحية المسيحية المتوحشة قائلاً : لماذا لا تناقشين هذا غداً مع النساء ؟

أصبحت أقوم بدورى كرسول متنقلاً بسرعة ونشاط بين «إيجبين» و «آكية» والدكان وماما (أدونى) وماما (إيجبور) و(كيمبيرى) وإستعادت المجموعة دروس القراءة والكتابة وبدأت أسأل نفسى : ألا توجد بين تلميذاتى زوجة أجمل من السيدة (أدوفوا) ؟ .. كانت أصغر النساء وأجملهن وأكثرهن حياة وفتنة ثم عرفت أنها لم تكن متزوجة فقررت الزواجة منها .. خاصة وأن بعض النساء كن يتهامسن عن ضرورة زواج مدرسهم الصغير - بعد أن أصبح طبيباً .

خصصت النساء فى إجتماعاتهن ساعة للقراءة والكتابة وعلم الحساب وساعة أخرى لتبادل الأسئلة عن الصحة وبعض الوقت لمناقشة مشاكل الضرائب .. كن قد رفضن الطلبات الكثيرة التى تقدمن بها للإعفاء من الضرائب فاختارت المجموعة وفوداً جديدة وكتبت النساء مزيداً من الطلبات حتى إمتلأ مكتب ضابط المقاطعة بالطلبات والعرائض والتهديدات .

سافرت السيدة (كوتى) مرات عديدة إلى لاجوس للحصول على مزيد من التأييد حتى سمعنا بعد فترة طويلة عن تكوين «إتحاد النساء النيجيرى» .

أصبح الإتحاد معروفاً على أوسع نطاق وكان الكل يشارك فى وضع نهاية لحكم الرجل الأبيض فى البلاد فكان السجن عقاباً لكل من يطالب بمغادرة الرجل الأبيض .. إعتقلوا بعضاً من الشباب القوميين وكثيراً من الأسماء الجديدة التى إنضمت للحركة .

ـ كان البعض يعد نفسه لزيارة إنجلترا كما فعل (داودو) و(بيير) وكانوا أيضاً يطالبون بضرورة الانتهاء من حكم الرجل الأبيض فراح الناس يتجولون فى كل البلاد يجمعون النقود ولم يبخل إتحاد النساء بمساندة تلك المجهودات بكل قوته وإمكانياته .. عقد كثيراً من المؤتمرات والمشاورات وكان من اليسير أن نساهم نحن الصغار بمصروف جيوبنا الصغير إدراكاً منا لأهمية الهدف الكبير .

ـ كن يناقشن مشكلة الضرائب حين نهضت سيدة عجوز بمساعدة أخريات .. تقدمت بجسدها الضعيف نحو المجلس وقالت : سمعت أن بعض الناس هنا يفعلون شيئاً لانقاذنا من المعاناة التى تثقل كاهلنا والتى يفرضها رجال الضرائب .

كانت أصابعها تتردد فوق عقدة اللفافة وحين نجحت فى فكها أخرجت قطعة من الورق وإستطردت : هاهى .. إنها سبب كل المشكلة .. سأحكى لكم .. كان لى ولد وحيد مات منذ ثلاثة أعوام وله ثلاثة عشر طفلاً .. هل

تسمعون ؟ ثلاثة عشر طفلاً من زوجات مختلفات .. أحضروهم عندى وكلهم صغار فقلت لنفسى : ماذا أفعل بأولئك الأطفال وأنا وحيدة بدون زوج ؟ .. كان لابد بالتفكير فى كيفية الحياة فتذكرت مزرعة إبنى التى كان يعيش منها وقالوا لى : (إيا) .. يجب أن تفعلى شيئاً .. إذهبى لتعتنى بالمزرعة بمساعدة إحدى زوجات إبنك وعندئذ تستطيعين الإنفاق على الأطفال وتعليمهم .

قلت : ذلك شئ جيد فالعمل أفضل من التوسل .

ثم سارعت إلى المزرعة من أجل العيش حتى لو تعثر تعليم الأطفال .. كان العمل شاقاً جداً بالنسبة لى كامرأة عجوز لكن رجال الضرائب حضروا منذ اسبوعين وأعطونى هذه الورقة قائلين : أنت تملكين مزرعة كبيرة .

لكنهم لم يقولوا شيئاً عن الأطفال الثلاثة عشر والنساء الأربعة اللاتى يعتمدن على المزرعة ويتطلعن إلى إنتاجها .

هاهى الورقة أمامكن .. من أين لى الحصول على تلك النقود المكتوبة فى هذه الورقة .. أخبرونى أين توجد النقود لأذهب وأبحث عنها ؟ .. إننى لم أر أبداً فى حياتى مثل هذه النقود الكبيرة .

كن ينصتن فى هدوء ثم راحت الورقة تتحرك من يد إلى أخرى حتى إستقرت أمام السيدة (كوتى) فوق المنصة .

إندفعت (كيمبيرى) فجأة من خلف المنصة .. دفعت الكرسى بجسدها

وقالت : كفى .. لقد سمعنا بما فيه الكفاية * O ya, e nso L'AKE ! .

نهضن محلقات بأياديهن فوق رءوسهن وقد فكت كل واحدة منهن رباط رأسها وربطته حول خصرها ..

كانت (كيمبيرى) تقود الطريق وهن خارجات من الإرسالية فامتلأت الشوارع المؤدية إلى القصر فى «آكية» .

ـ كان الممر الواسع المربع يتصدر قصر «آلاك» ويفصل بين أسوار القصر والشوارع العامة وكان دكان المسيحية المتوحشة يقع فى نهاية ذلك الممر فى الجانب الآخر من الشارع .. كان الممر نظيفاً ومحاطاً بالأحجار البيضاء والأشجار وكانت البوابة المقوسة تؤدى إلى مبنى القصر ويجلس فوقها تمثال لأحد الأفيال كان رمزاً لملكية «إيجبالاند» وعند أطراف الممر على اليمين كنا نلمح أشكالاً من الخشب والطين الخزفى .

ـ كنا من خلال الدكان نشاهد الأجبونى وهم يسارعون طوال ساعات النهار للالتحاق باجتماع الرؤساء .. كانوا يسيرون بخطى سريعة وبقوة تشير إلى صحتهم العفية وهم يرتدون الثياب الواسعة التى تتدلى من أحد كتفيها الأشرطة .. كان البعض منهم يرتدى شباشب من الجلد أو القماش وقبعة من القماش يتدلى منها فوق أحد الأذنين جراب أو كيس ويمسكون فى يدهم اليمنى بمجموعة من حديد أو نحاس المكتب كان الخدم يتولون حملها نيابة عنهم وكانت أيضاً تلك المراوح الكبيرة من الجلد المقوى لكن أكثر ما كان

* حان الوقت .. دعونا نسير نحو آكية .

يميزهم هى تلك القبعات ذات الحواف العريضة المصنوعة من الجلد والمزينة بالألوان والقشور والخرز .

كانوا يمشون فى «آكية» هادئين كأرواح الموتى تبدو على وجوههم سيماء الحكمة وكنا نخاف منهم .. وننظر إليهم بمزيج من الرعب والإفتتان .

كانت المبانى تحتوى بداخلها على المكاتب وحجرات مجلس الإدارة البلدى وبداخل المبنى الكبير كان ثمة سرداب طويل يؤدى إلى الفناء حيث الانفصال الكامل عن العالم الخارجي .. كان السور المنخفض على شكل نصف دائرة يحيط بالفناء وكان مزخرفاً بالتماثيل على شكل الإنسان والحيوان .

عند ظهور (آلاك) فى الشرفة كان الرجال ينبطحون على الأرض بينما تركع النساء على أرجلهن ويزحفن على الأرض ثم ينادى رؤساؤه على مقدمى الطلبات وأصحاب الشكوى وينتهى الأمر بإصدار الأحكام وتقديم النصائح وبعض الوصايا .

عرف الوقت الذى يظهر فيه (آلاك) فكنت أخاطر بالذهاب لمشاهدة مختلف الناس المتوسلين وحدث أن رآنى ذات مرة فأشار لى وتملكنى الرعب .. قفزت من مكانى واتجهت ناحيته بهدوء لكنه كان ظريفاً معى وكان الخدم يضحكون فى السر غير أننى لم أملك الشجاعة الكافية لإغراقه بأسئلتى .

إكتشفت ذات مرة أحد الممرات المؤدى إلى دهليز منحنٍ يؤدى بدوره إلى حجرات الحبس حيث يقف رجال البوليس الذين يتظاهرون بأنهم حراس القصر .. كانوا يفتحون باب ذلك الممر فتخرج مجموعة من المذنبين والمذنبات

يلقون بهم فى تراب الفناء أسفل (آلاك) الذى يطل من الشرفة ويسألهم بصوت رفيع حزين : لماذا أيها الناس لا تدفعون الضريبة حتى لا تجبرونا على فعل ذلك ؟

تزاحم الناس عند بوابات القصر وكم أدهشتنى ماما (إيجبور) بوصولها السريع مع الآخريات .. إنحنت المسيحية المتوحشة إحتراماً عند ظهور (آلاك) وكذلك فعلت ماما (أدونى) والآخريات بما فى ذلك (كيمبيرى) وكان واضحاً أن (آلاك) يستقبل الوفود بلطف ومجاملة فراح يتحدث إليهن بطريقة مهذبة توحى بالإبوة وبدا وكأنه مقتنع بكل ما تحدثن بشأنه .. كان يتحدث إليهن وكأنهن بناته أو صديقاته أو قريباته .

ركعت (كيمبيرى) مرة ثانية وقدمت له التحية قائلة : (كابينزى) .. أوه (كابينزى) .. إننى أتوجه إليك اليوم باسم كل النساء اللاتى تركن منازلهن وأطفالهن والمزارع والشئون الصغيرة لزيارتكم اليوم .. إنهن متجمعات فى الحديقة الأمامية ويمكنك أن تشاهدهن بنفسك (كابينزى) .. إنهن نساء «إيجبا» ولقد جئن للقول : كفى .. كفى .

إن السيدة (كوتى) هى التى سألتنى أن أخبرك بشأن النساء المجتمعات بالخارج .. إنهن جائعات وأطفالهن جوعى وليس لديهن أى أمل فى التعليم أو الحلم بمستقبل أفضل .

كانت الأسواق قديماً تنعم بالهدوء والاحترام والأمان وكنا طوال فترة بقائنا فى السوق نحس وكأننا فى بيوتنا أما الآن فإن رجال الضرائب

ورجال القصر يضايقوننا ويضعون أياديهم على الملح والخضروات والمحصول والزيت وكأن ذلك من حقهم .. يقولون بأنهم مجبرون على فعل ذلك من قبل الرؤساء والمجلس ونحن نقول : كفى .. كفى .. لانريدهم فى الأسواق بعد اليوم .. يجب أن يرحلوا بعيداً عنا .. إنهم يرسلون البوليس للقبض على نسائنا وحبسهن وجلدهن بالسياط .. لانريدهم فى الأسواق بعد اليوم .

أخبرتنى السيدة (كوتى) أن أخبركم بأننا نكتب الطلبات ونعقد الإجتماعات ونتقدم بالإحتجاج فى كل مكان ضد ذلك الظلم فى فرض الضرائب.

إرتفع صوت (كيمبيرى) وهى تواصل حديثها حتى سمعته النساء فى الفناء فنهضن على الفور وارتفعت صيحاتهن حتى ملأت سماء «آكية» : (لامزيد من الضرائب .. لاضرائب بعد اليوم) .

كان (آلاك) جالساً يتأمل المشكلة فى ذهول .. إنتظر حتى يسود الهدوء ثم قال : (إميليا) .. أشكرك جداً .. أشكركن جميعاً وأتوجه بشكرى للسيدة (كوتى) التى لاتوجد هنا الآن .

قاطعته (كيمبيرى) قائلة : إنها قادمة فى الطريق .

بدا عليه القلق لكنه سرعان ماعاد إلى طبيعته وقال : هل هى قادمة؟ .. آهـ .. حسناً .. إن رائدة جديدة ستنضم إلى الجمع .. ولكن دعونى أسألكن أيتها النساء : هل تعتقدن بأننا نستطيع ؟ .. إن الضرائب قديمة قدم المجتمع الإنسانى ولا يستطيع أحد أن يلغيها هكذا ببساطة .

أجابت المسيحية المتوحشة : (كابينزى) .. أتوسل إليك أن تتأمل الأمر .. فكر فى الأمر بعناية فليس الوقت مناسباً لمعرفة أن أجدادنا كانوا يدفعون الضرائب .. إننا نتحدث اليوم عن نسائنا اللاتى لا يستطعن دفع الضرائب .

قال (آلاك) : قد يكون ذلك حقيقياً وأنا أعلم مدى الورطة التى تعانى منها النساء لكن سؤالى مازال مطروحاً : هل يمكن ذلك ؟ .. وعلى أية حال فإننى لا أستطيع إتخاذ قرار فى هذا الشأن فلست أنا الذى أفرض الضرائب وإنما مجلس الحكومة فيجب أن يتحول إليهم الأمر لكننى أسألكن مرة أخرى : هل تعتقدن أن ذلك ممكناً ؟

نهضت (كيمبيرى) من مكانها مذعورة وهزت رأسها بقوة قائلة : لا .. لا .. أوه (كابينزى) .. لقد جئنا إليك كأب لنا .. جئنا إلى الشخص الذى نعرفه فنحن لا نعرف مجالس أو حكومات غيرك أنت .. أنت الحكومة والحكومة هى أنت ولقد جئنا لنتحدث إليك ولانريد الحديث مع أحد غيرك وكما قالت زوجة الناظر يجب أن تفكر فى الأمر وتتأمله بعناية شديدة .

قال (آلاك) مؤكداً : سوف أفعل .. سوف أفعل لكننى مضطر لإستدعاء المجلس وقد أصدرت أمراً باستدعاء أعضائه منذ قليل فالأمر لا يتعلق بالقصر وحده ولا يمكن الانتهاء منه فى ليلة واحدة .. إعطونا بعض الوقت واخبروا الناس بأننى وعدت بالنظر فى الموضوع .. سوف نضع فى اعتبارنا كل شئ فى اجتماع المجلس .

تنهد قليلاً ثم إتجه ناحية المسيحية المتوحشة بلهفة وضيق قائلاً : دعينى

أسألك شيئاً .. أنت زوجة ناظر المدرسة وإنه المسئول عن المدرسة وأنشطتها المختلفة وهو الذى يقرر سياسة المدرسة ويتولى شئونها والآن تخيلى معى بأنه يجب أن يتخذ قراراً هاماً خاصاً باتجاه المدرسة مثل زيادة أو نقص مصاريف المدرسة أو تغيير مناهج التعليم فهل يستطيع الناظر أن يفعل هذه الأشياء بمفرده ؟

أجابت ماما : لا .. (كابينزى) .. لابد أن يعقد إجتماعاً يضم المسئولين فى المدرسة أومأ (ألاك) برأسه قائلاً : نحن إذن متفقون والآن لنفترض أن أولئك المسئولين رفضوا اقتراحات الناظر التى يؤمن بها ويرى أنها ضرورية فماذا عليه إذن أن يفعل ؟

كانت المسيحية المتوحشة تنظر إلى الأرض حين هزت رأسها بأسى وقالت : (كابينزى) .. إن من تتحدث عنهم هم * agba-igba وليسو مثل الأطفال الذين جائتنا من أجلهم الآن .

أومأت كل النساء برءوسهن فى حزن وراح (آلاك) يتطلع فى الجمع المحتشد فى الفناء ثم تنهد ومضى إلى الداخل .

إرتفعت الصيحات فى السماء مرددة : (بيـ .. يـ .. يـ .. ير) معلنة عن قدومها .. أحاطوها من كل الجهات وأصبح الممر المؤدى إلى الفناء مزدحماً ..

شعروا أن شيئاً خطيراً قد يحدث فأرسلوا فى طلب ضابط المقاطعة ورجال البوليس .. حاول الضابط أن يشق طريقه وسط الزحام لكن النساء كن

* أطفال أكبر سناً وحالتهم جيدة .

يضايقنه حتى صار وجه الرجل الإنجليزى أكثر إحمراراً وعرف أنهن يضحكن عليه فأصدر الأمر لرجال البوليس أن يفسحوا الطريق بالقوة وعندئذ وصل إلى حيث توجد السيدة (كوتى) المحاطة بقلق النساء وأسئلتهن الكثيرة.

ثار غضب النساء عندما ضغط عليهن رجال البوليس لإفساح الطريق فرحن يطلقن صيحات السخرية من الضابط الذى أصبح وجهه ورقبته بلون الخشب الأحمر وتجاوز الإهانة حتى دخل فناء القصر .

شعرت تماماً أن إحساسه بالأهانة والتحقير جعله يحتمى بالقصر .. صعد إلى الشرفة المطلة على الفناء ثم صاح فى السيدة (كوتى) : إنظرى هنا أيتها السيدة .. جئنا هنا لنعقد إجتماعاً هاماً فهل تتكرمين بإبعاد نسائك!؟

أجابت السيدة (كوتى) : ونحن أيضاً نعقد إجتماعاً هاماً أم أنكم تعتقدون أننا هنا لنلعب ؟ !

صاح الرجل بغضب : حسناً .. أخبريهن إذن بالتزام الصمت والهدوء .

صمتت السيدة (كوتى) لحظة ثم قالت : معذرة .. عليك بمحادثتى أنا .

* نعم .. بالطبع أنا أتحدث إليك .. قولى لهن أن يلتزمن الصمت .

ساد الهدوء بعد صياح الرجل لكن السيدة (كوتى) أجابته بطريقة غاضبة ظل صداها يتردد فى «أبيوكروتا» لأسابيع طويلة .

قال الضابط بعد غضب السيدة (كوتى) : هل تتحدثين إلى أمك بمثل هذه الطريقة ؟

تقهقر الضابط فاتحاً فمه وسط تذمر وغضب النساء وارتفعت الهتافات فى الأفق مطالبة (آلاك) بالتخلص من ذلك الرجل الأبيض الوقح وتقطيع أعضائه التناسلية لإرسالها إلى أمه .

تراجعت إلى حافة الفناء خوفاً من أن تدوسنى الأقدام الكثيرة وحين مررت بجوار السيدة (كوتى) وسط الزحام رأيتها لأول مرة تبتسم وتقول : Hm,I'oogun,o ti ya de'bi * (1) .

جاء رجل أبيض من مقاطعة «إيجبا» كان يبدو متغطرساً وهو يمشى فى الممر .. أثارت ثورة النساء غضبه فراح يؤكد سلطته وهو يصفر مختالاً وقال بصوت أجش مثل شكله : هاآآم .. لقد فسد العالم .. إن العالم يوشك على نهايته عندما تحاول تلك إل agb'eyin - to * (2) محاصرة القصر وإثارة القلق .

ثم إرتفع صوته أكثر وهو يقول : إذهبن إلى منازلكن للعناية بالمطبخ وإطعام الأطفال فماذا تعرفن عن شئون الدولة ؟ ألا ترغبن فى دفع الضرائب ؟ .. أنتن بحاجة للضرب بقوة فوق أردافكن .

تظاهرت النساء مرة ثانية وعلت الصيحات والهتافات فلم يعد أحد يشك

* (1) هاآآم .. هل يوجد الرجل المكافح هنا .
* (2) النساءاللاتى يتبولن من المؤخرة .

فى قوة النساء الروحية وقوة (بيير) العظيمة .

أصيب الرجل فى فخذه وهو يواصل تهديداته ولحقته ضربة أخرى من أحد الإتجاهات فبدأ يترنح وارتسمت على وجهه علامات الحيرة ثم سارع بالزحف وهو فى حالة متدهورة ثم هجمت النساء على واحد من الستة الذين جاءوا معه ومزقن شاله والمروحة والبرنيطة وكررن نفس الشئ مع الأخرين تاركين إياهم بملابسهم الداخلية فقط فلاذوا إلى القصر بينما هرع البعض عائدين إلى منازلهم .

أسرعت إلى الدكان للإحتماء بالمسيحية المتوحشة التى كانت قلقة بشكل ما من ذلك العنف .. لم أصدق أبداً أنها تكره العنف .

كانت ترتب البضائع أمام الدكان حين شاهدت واحداً من الأجبونى يمشى بثقة نحو «آفين» ولا يعرف شيئاً عما يحدث فصاحت قائلة : بابا ..بابا .. إلى أين أنت ذاهب ؟

أجاب : إلى «آفين» حيث تم إستدعاؤنا من أجل بعض المشاكل هناك .. هاأنذا أسمعها من هنا .

* بابا .. إرجع بسرعة .. إذا شاهدتك النساء...........

ثم إندفعت إلى الخارج وسحبته إلي داخل الدكان وأغلقت عليه ضلفة واحدة من الباب وقالت : بسرعة بابا .. إنزع عنك هذه الأرواب وتخل عن ملابس الأجبونى .

شعر الرجل بالأضطراب من سرعتها وصوتها وحركتها فقال لها : ?Enh
. Ewo tl tun de yi ? enh ? * [(1)]

توجهت ماما خلف الباب وتناولت شاله وقبعته وألقت بهم خلف الشباك وقالت : بابا .. تخلص أيضاً من العباية وأقذف بها إلى الخلف مع بقية الأشياء واحتفظ فقط ببنطلونك .

بعد لحظات قليلة كانت النساء قد إقتربن من الدكان وشاهدن الرجل الأجبوني ..لم تحاول المسيحية المتوحشة أن تنكر وجود الرجل وقالت : إذا كان هو هذا العجوز الذى تبحثن عنه فإنه بالداخل لكنه ليس أجبونى .

قلن بإستنكار : آهـ .. ماما (وول) .. كيف تقولين ذلك وقد شاهدناه بعيوننا؟

* لقد كان كذلك أما الآن فلقد تغير .. لقد قلت له أن تخل عن ملابس الآجبونى لعدم القدرة على إحتمالهم اليوم .

قالت إحداهن مقاطعة : إنهم مازالوا أعداء سواء بملابسهم السخيفة أو بدونها .. أليسوا هم الذين يفرضون علينا الضرائب .. دعينا ماما ننال من هذا الرجل قبل أن يذهب .

هتفت الأخريات بصيحات التأييد فأضافت أخرى : اليوم يوم حسابهم جميعاً فدعيه يخرج يا ماما .

* (1) ما هذه التطورات الجديدة ؟

قالت المسيحية المتوحشة : أنا لا أعرفه وتستطيع واحدة منكن أن تدخل وتسأله ..إننى أعرف أثنين أو ثلاثة منهم فقط فأرجو ألا تفهمن أننى أقوم بحمايته لأنه [(1)] *ibatan ولكننى لا أحب المتاعب ولا أحب كل ذلك العنف لأننا لم نعد أنفسنا له .

هدأت ثورتهن قليلاً لكن إحداهن قالت : دعيه يخلع كل ملابسه ويتخلى عن كل أشيائه فلا نريد رؤية أى منها فى شوارع «أبيوكوتا» اليوم أو غداً وأيضاً للأبد .

هزت ماما رأسها قائلة : بابا .. إطو ثيابك بعناية وأربطها جيداً ثم إذهب إلى منزلك .

تنهد الرجل قائلاً : آهـ .. لست فى عجلة من أمرى .. سأبقى هنا حتى يهدأ كل شئ .

قالت المسيحية المتوحشة للنساء :ماذا تردن أكثر من ذلك .. إنه خائف منكن فاذهبن أولاً ليغادر هو بعد ذلك قالت النساء : دعينا نتأكد أنه ليس واحداً من أولئك الذين يجب أن نحذر منهم .

إضطر الرجل العجوز أن يقدم نفسه ثم أقسم أنه طوال حياته لم يكن ضد النساء وأنه كان يطالب بالغاء الضرائب وكثيراً ما أخبر (كابينزى) عن أولئك الطفيليين كما إن زوجته شاهدة علي مايقول لأنها أيضاً كانت تتاجر فى السوق .

* (1) أحد الأقرباء .

إنصرفت النساء فإنحنى الرجل العجوز عدة مرات معبراً عن شكره وامتنانه للمسيحية المتوحشة ثم أسرع ببنطلونه مخلفاً وراءه ملابس الأجبونى قائلاً لنفسه : يمكننى إحضارها غداً .

قبل الغسق بقليل ساد الهدوء لكن النساء كن قد قررن محاصرة القصر حتى يحصلن على كل المطالب فبدأت الفرقة الموسيقية تتحرك فى كل الطرق والممرات المؤد ية إلى القصر .. تدفقت النساء من كل صوب قبل ساعة من غروب الشمس ووسط كل ذلك الزحام كانت إمرأة تعانى الآلم المخاض فشاهدت لأول مرة ميلاد طفل .. أسرعت السيدة (كوتى) نحو المرأة ورأتنى واقفاً فى هدوء وسط حلقة من النساء .. شاهدت إحداهن تدفن الخلاص تحت شجرة فى الحقل وراحت تنظف المولود وتربط الحبل السرى .

إشتد الزحام بعد وصول كثير من القوافل الأخرى فهزت ماما (إيجبور) رأسها وقالت : كأن السموات فتحت أبوابها وتفجرت القبور عن الموتى فجاءوا جميعاً لمشاركتنا .

إرتفع صوت بالغناء وكان الجميع فى حالة من الذهول والنشوة والابتهاج .. كان الجميع يغنى فى الليل :

La - illah - il - allah

Anobi gb' owo owa

On'ise nla gb' owo owa

Anobi gb' owo wa

Ate' le ni ma ya gb' owo owa

Anobi gb' owa o wa *

---

* لا اله إلا الله

ساعدنا أيها الرب

رب الأعمال الكبيرة .. ساعدنا

أنت الذى تقف بجانبنا .. ساعدنا

أيها الرب .. ساعدنا

(١٥)

صدر الأمر بإغلاق الأسواق ودكاكين النساء ومصادرة بضائع من لا يلتزم بالأمر وارسالها إلى فناء القصر .. حاصروا النساء اللاتى رحن يتجولن فى أرجاء المدينة وانضم الرجال اليهن نحو مزيد من التشجيع والتغلب على الخوف الذى أصاب بعضهن .

غضب بعض الرجال من زوجاتهم الخائفات ودفعوا بهم للمشاركة لأن ما يحدث من أجلهن .

ذات صباح أمر أحدهم زوجته بالذهاب إلي القصر بعد أن قدم لها نقوداً لإنفاقها فى طعام الأخريات مؤكداً لها أنه سوف يعتنى بالأطفال حتى ينتهى كل شئ .

تصاعدت الحركة فى إتجاه «آفين» فترك بعض الرجال الآخرين مزارعهم للإنضمام إلى الحركة بينما توجه بعضهم إلى المزرعة لإحضار البطاطا والفاكهة والنبيذ لتقديمها للنساء .

- كانت (بيير) والمجموعة يتناقشن مع الضابط الجديد بعد أن قدم الضابط الأسبق إستقالته وكانت الإجتماعات مع مجلس القصر لا تتوقف ولكن دون الوصول إلى حل من الحلول وعند نهاية كل إجتماع كن يخبرن بقية النساء والرجال بعد التوصل إلى حل فيجيون بالغناء والرقص نحو مزيد من التحدى.

فى الصباح التالى بعد أحداث الشغب الأولى أرسلوا من لاجوس قوة مسلحة من البوليس راحت تراقب الموقف من بعيد وهم يمارسون التدريبات بثقة بينما كانت بعض النساء يسخرن منهم بتقليد حركاتهم فى التدريب وكان قائدهم متصبباً بالعرق فى شمس* الصباح ويجاهد لإستعادة كرامته أمام النساء اللاتى يسخرن منه .

كان (آلاك) مذعوراً ووحيداً مع حوضه المائى وأسماكه الكهربائية لا يستطيع إيقاف الهتافات والأغانى التى تندد به وتحط من قدره ولم أستطع أن أفهم رفضه التسليم بمطالب النساء فقلت لنفسى : ربما كان عبداً لضابط المقاطعة الحالى أو لذلك الحقير الذى كان قبله !!

كانت السيدة (كوتى) ورفيقاتها قد عرفن تماماً بأنه لاشئ يمكن الحصول عليه من خلال الاجتماعات والمناقشات مع القصر فاندلعت حرب الإرادة والتصمصم ورحن يتصرفن بطريقة أخرى قد تثمر بعض النتائج ولسوء حظى لم أستطع أن أتبين تماماً تلك الطريقة الآخرى .

بعث كبار الأجبونى برسالة إلى السيدة (كوتى) تقول نحن أبناء Majeobaje * لا نستطيع أن نرى الأشياء وهى تتطور إلى الأسوأ دون أن نفعل شيئاً .. سوف تصيبك الدهشة عندما تعرفين أننا نقف إلى جواركن .. لقد أعددنا قائمة بطلبات النساء .

أثناء الغذاء فى اليوم التالى أخبرت المسيحية المتوحشة إسحق بما قالوه

* جماعة تؤمن بالسلام ولا تترك الأشياء تصل إلى حد الحرب .

وكان الغذاء الأول الذى يجمعنا منذ أيام عديدة وربما أسابيع عديدة .

قالت ماما : كانوا غاية فى اللطف ولم يطلبوا منا أن نعتذر عن معاملتنا القاسية لهم لكنهم قاموا بتحذيرنا مما قد نصل إليه وقالوا لنا بأنهم لم يندهشوا .

وأضافت ماما : قالوا أشياء كثيرة وغريبة وكان أهم ما قالوه أنهم لن يتركوا الخراب يسود «إيجبالاند» ولن يسمحوا لنا بإتلاف أى شئ .

واصلت المسيحية المتوحشة حديثها مع إسحق تلك الليلة مدة طويلة ..كانا يتحدثان بصوت منخفض ولم أكن أعرف أن أمى تعانى المرض وأن رأسها يعانى إضطراباً شديداً .

إقتربت قليلاً لأستمع فعرفت أن الأجبونى قوم لا يبالون وأنهم كثيرو النسيان وإذا كانوا حقيقة قد تنبأوا بكل شئ وعرفوا كل شئ كما قالوا فلماذا لم يسارعوا بالحل ويساندوا النساء ؟

لم إستطع أن أصدق ادعاءات الأجبونى بأنهم يعلمون الغيب .

- كانت الاضطرابات ما تزال مستمرة حين إستدعونى للمقابلة مرة أخرى لإمتحانات كلية الحكومة فراح إسحق يتابعنى بلا شفقة .. قلت له كى يطمئن : لا تقلق سوف إحصل على المنحة الدراسية هذه المرة .. إننى متأكد من حصولى عليها .

وبخنى لتلك الثقة المبالغ فيها ولم أعرف كيف أفسر له أن ما أريده يصبح

مؤكداً بطريقة ما .. كان حريصاً على أن أظل بالمقعد الأمامى فى المنزل بعد عودته من المدرسة فكنت أجلس وأذاكر دون أى إحساس بأننى إفتقدت شيئاً ذا أهمية .

كان إسحق ينظر إلىّ بعد عودته بومضة من السخرية والأمل ثم يسأل : كيف تواصل النساء حربهن بدونك ؟

وكنت أجيبه بلا تفكير : أوه ..لاشئ يحدث حتى الأن ولاشئ سيحدث ليومين آخرين .

لم أعرف أبداً لماذا أجبت هكذا لكننى غالباً ما كنت أقول الصواب.. كنت أملك إحساساً يصيب إسحق بالحيرة .

- بعد إجتماع نهاية الإسبوع فى المدرسة صعدت إلى الطابق العلوى كى أودع (داودو)و(بيير) قبل أن أغادر إلى «أبادان» فى اليوم التالى ..كانوا فى إجتماعاتهم السابقةيغنون نشيدين أحدهما نشيد «إيجبا» الوطنى والآخر «حفظك الله أيها الملك» ..كان الملك هو (آلاك) وليس ذلك القابع فى الجانب الأخر من المحيط فتم إلغاء النشيد الثانى منذ أسابيع عديدة ثم سمعت أنه يتردد مرة ثانية عن طريق مجموعات مستقلة غير رسمية فاعتقدت أنه نوع من تحدى (داودو) لكننى حين سمعت الكلمات عرفت أنها تغيرت .. كانوا يرددون

Kabiyesi,oba on'ike

Ademola K'eran

Omo eran j'ogun ila

Ono ote Lo l'obe

Kabiyesi, baba iran

Kabiyesi o

Kabiyesi oba ´win

Kqbiyesi o*

قلت لنفسى : أوه .. (آلاك) .. يالك من مسكين .. إن هزيمتك مؤكدة .

عندما صعدت السلالم كانت (بيير) تتحدث فى التليفون الذي كان أحد أربع تليفونات فى «أبيوكوتا» كلها .. كانت تتحدث بغضب ولم أشاهدها من قبل بمثل هذه الثورة والغضب .

كانت تقول : كنتم مجبرين على إسقاطها فوق اليابان .. أليس كذلك ؟

* الملك الأحدب

أديمولا تتحمل المتاعب

إبن الحيوان الذى يرث أوكرو

إبن المؤامرة الذى يستولى على إناء الشوربة

والد الحيوانات والبهائم

الملك الخشبى .

.. لماذا لم تسقطوها فوق ألمانيا ؟.. أخبرنى على سؤالى إذا كنت تستطيع .. لماذا اليابان وليست آلمانيا ؟

توقفت قليلاً وهى تسمع إجابة الطرف الآخر على التليفون ثم ضحكت بأسى وقالت بصوت تملؤه المرارة : أنت تعرف تماماً لماذا ..لأن الألمان جنس أبيض .. لأنهم أقاربكم أما اليابانيون فهم قوم قذرون ذوو لون أصفر .. هذه هى الحقيقة ولا تنكرها .. لقد قمتم بإسقاط تلك الأسلحة غير الإنسانية فوق قوم إنسانيين وفوق أكثر المدن كثافة بالسكان .

كانت تسمع الرد حين إزداد غضبها وانفجرت قائلة : نعم .. أنتم تجيدون تماماً ما تفعلون وتدينون أنفسكم أمام العالم .. كان بمقدروكم إسقاطها فوق أحد الجبال أو فى البحر .. إننى أعرفكم .. أعرف العقلية البيضاء .. نحن الأفارقة واليابانيون والصينيون فى أذهانكم قوم لا قيمة لهم .

سمعت عندئذ ضحكات الطرف الآخر من السماعةالذى تحث طويلاً بينما ظللت أراقب التغييرات المختلفة فوق وجه السيدة (كوتى) التى إستراحت قليلاً وابتسمت ثم توترت فجأة وقطبت عن وجهها وهى تقول : لا .. لم أتصل بك من أجل ذلك وإنما لتبليغ رسالة إلى الذين يسمون أنفسهم بالحلفاء وأنت أحد ممثليهم الأقرباء والآن دعنى أخبرك أن ملككم .. أعنى الموجود هنا .. لا .. لا تقاطعنى فأنا أملك الحق فى التعبير .. إنه ملكاً لكم أنتم وأنتم الذين أنقذتم رأسه .. إستمع لى .. لقد أرسلت لك قائمة بمطالبنا وكان يتراجع فى كل كلمة وكل وعد .. فقط أخبره عما بدر منى إذا لم يكن قد تعلم الدرس من هتلر ..

أخبره بضرورة أن يتعلم الدرس من هتلر وأنت كذلك وأيضاً الحكومة الإستعمارية .. توقفت وظلت تستمع مدة أطول ثم هزت أكتافها وقالت : حسناً .. لقد خذرتك .. إلى القاء .

ثم وضعت سماعة التليفون .

إتجهت ناحيتى وحدقت طويلاً وهى تقول " نعم .. أعرف أنك ستغادرنا وتذهب إلى كلية الحكومة .. إنتظر هنا .. عندى شئ لك .

إختفت فى حجرة النوم وعادت بلفافة صغيرة مسطحة كان يبدو أن ما بداخلها قميص لكننى لم أهتم برؤيته لأننى كنت مضطراً للتصحيح حين قلت : لا - لن أغادر وإنما أنا ذاهب فقط للمقابلة فالمدارس لا تبدأ العام الجديد قبل يناير .

فكرت قليلاً وقالت : طبعاً .. ذلك صحيح ولا أعرف كيف أننى لم أنتبه لذلك .. وأذن لا أستطيع أن أقدم لك هذه اللفافة الآن .

سألتها : لنفترض أنهم لم يختارونى بعد كل شئ !؟

إبتسمت وتظاهرت بأنها تفكر : هاآم .. سيكون ذلك صعباً فأنا أحتفظ بهذه اللفة إلى يوم رحيلك .. دعنا نرى .. نعم .. فلنبدأ من البداية .. كم من الوقت ستمضى هناك من أجل هذه المقابلة ؟

* ثلاثة أيام .

قدمت لى ستة بنسات قائلة : إنها لك .. إشتر بها شيئاً وإفترض أنت أنهم قبلوك .

أومأت برأسى ثم إستطردت حديثها : رائع .. إذا قبلوك ولم تحصل على المنحة فسوف أعطيك القميص أما إذا حصلت على المنحة فتستطيع أن تخمن ما سوف أقدمه لك .

أجبت بسرعة : زوج من الأحذية .

صاحت قائلة: ماذا ؟

ثم تذكرت وضحكت مستطردة : أوه .. نعم .. زوج من الأحذية .

سألتها فجأة عن سبب غضبها وتوترها بشأن إسقاط القنبلة فوق اليابانيين وأضفت قائلاً : أليسوا هم أصدقاء هتلر ؟

قالت : إن الرجل الأبيض رجل عنصرى وأنت تعرف تاريخك عن تجارة الرقيق .. حسناً .. إن الرجل الأسود بالنسبة لهم إنسان متوحش وعبء ثقيل وكذلك الآسيويون بما فيهم الهنود واليابانيون والصينيون وغيرهم لكنهم يعتبرونهم أفضل منا درجة صغيرة وهكذا كان إسقاط تلك الأسلحة المدمرة فوقهم لايعنى شيئاً بالنسبة للرجل الأبيض لأنهم ليسوا من الجنس الأبيض .. كانوا يجربون أسلحتهم فوق أولئك الملونين وكأنهم أغنام .

عاد (داودو) أثناء حديثى مع زوجته ووضع بعض الملفات فوق الرف .. إقترب وصنع لنفسه كوباً من الشاى ثم قال : لن أرسل (كوى) وأخوته إلى

مدرسة يديرها الرجل الأبيض وعليك أن تفهم هذا .. ليس فقط بسبب بشرتهم البيضاء ولكن أيضاً لأنهم مستعمرين .. إنهم يعملون على تدمير شخصية أولادنا .. تذكر ما قلته لك فى العام الماضى عندما كنت ذاهباً للمقابلة الأولى .. هل تذكر ؟

* نعم يا عمى .

* حسناً .. هل كنت على صواب أم لا ؟

* لكننى أخبرتك يا عمى أن المدرسة فى أجازة وأننا لا نفعل شيئاً سوى الأستعداد للمقابلة .

توجه بحديثه إلى (بيير) : هل تعرفين ما إكتشفته ؟ .. إن إؤلئك المدرسين لا يصنعون جيوباً فى بنطلوناتهم !!

أصاب الذعر (بيير) فسألتنى : هل هذا حقيقى ؟

قلت : نعم .

ثم إستطرد (داودو) : الآن .. هل تعرف [illegible] ؟ .. لماذا يكون فى العالم شباب يرتدون بنطلونات بدون جيوب ؟

هز رأسه بقلق وأضاف : هل تعرف ؟ إن الرجل الأبيض مخلوق غريب فى بلده .. إن التلاميذ فى بلدهم يرتدون الحلل ذات الجيوب فلماذا يأتى أحدهم إلى هنا كمدير ومسئول عن المدرسة ويمنع الجيوب عن أولاد مدرسته السود ؟ .. لماذا ؟

فكرت قليلاً ولاحظت شيئاً فى (داودو) و(بيير) .. لم أكن مع كلامهما فى حاجة لأسئلتى الكثيرة فقد كانا دائماً على إستعداد للتحدث معى أو مع أى طفل .. كان (داودو) غالباً ما يطوقنى بذراعه حتى وأنا جالس أقرأ فى هدوء وكان يسألنى عن متابعتى للأخبار الحديثة من لاجوس أو أى مكان آخر وفى حال عدم سماعى أى شئ كان يوبخنى ويهز رأسه قائلاً : يجب أن تهتم بمتابعة الأخبار فلا يكفى أن تضع أنفك فى هذا الكتاب الميت .

كرر القول : لماذا ؟ .. لماذا يمنع المدير الأبيض الجيوب عن بنطلونات أولاد مدرسة الحكومة ؟

قالت (بيير) : ذلك ما كنت أقوله للضابط قبل أن تأتى .. إسقاط القنبلة الذرية فوق هيروشيما وليس آلمانيا البيضاء .. إن كل رجل أبيض هو عنصرى كبير .

تنهد (كوتى) بوقار وكان الحزن مرتسماً فوق وجهه فبدأت أتسأءل عن الخطأ فى ذهابى إلى مدرسة الحكومة .

سألنى (داودو) : ماذا عنك الآن .. ما عمرك ؟ كم عمو؛ الآن ؟

أجبت : إحد عشر عاماً .

* حسناً .. سوف تبلغ الحادية عشر والنصف عندما تذهب إليهم فى يناير المقبل ولقد أمضيت عامين فى مدرستنا .. ذلك ما ينبغى التفكير بشأنه على ما أعتقد .. ألا تعتقد أنت كذلك ؟

إتجه ببصره إلى (بيير) طالباً الرأى فقالت مؤكدة : أوه .. نعم .. نعم .. ولا ننسى أنه إبن (آيو) و(إينيولا) فأعتقد أنه سيكون قادراً على مواجهتهم هناك .

أشار (داودو) برأسه بابتهاج وقال متحدياً : نعم .. سوف نرى .. إنهم لا يضربون بالعصا إلا قليلاً جداً .. كيف نعلم أولادنا بهذه الطريقة ؟ .. إنهم أيضاً لا يسمحون بارتداء الأحذية .

أصبحت خائفاً فقلت : عمى .. هل أنت متأكد ؟

قال : بالتأكيد .

ثم ضغط على شفتيه مستطرداً : لا أحذية .. إنهم يتبنون أفكاراً غريبة فى بناء الشخصية .. لا أحذية إلا للرؤساء .. لماذا تكون سياسة المدرسة هكذا ؟

– لم أعد أهتم وكانت نظراتى تخترق عينى (بيير) التى كانت تلوح بحاجبيها فى إستهزاء فضحكت كثيراً ولحقتنى (بيير) بضحكاتها .

ظل (داودو) يحدّق فى كلانا متجهماً لمعرفة السبب فى ضحكاتنا .

قالت (بيير) بصوت منخفض متعجبة : لا أحذية ؟!

ثم قلت متنهداً : لا أحذية !!

وفكرت فى عمرى .. إحد عشر عاماً .. إحد عشر عاماً .

كان الوقت مناسباً لبدء مرحلة عقلية جديدة بالدخول إلى عالم آخر غير معقول .. عالم من المراهقين البالغين سن الرشد

« تمت »

رقم الايداع
١٩٩١/٩٧٨٣
I.S.B.N.
977-208-071-0

مطبعة اطلس
imprimerie atlas
LE CAIRE: 11-13 RUE SOUK EL TEWFIKIEH, R.C.100731,TEL:747797
القاهرة : ١١-١٣ شارع سوق التوفيقية س.ت ١٠٠٧٣١ ت ٧٤٧٧٩٧